مكتبة المغامرات

١٣

ولدان ضائعان

تاليف : شـريف الراس

- ١ -

★ أنا خائف يا عبدالقادر .. أنا خائف جدا .

ـ هس .. اخفض صوتك يا محمود .. اخفض صوتك حتى لا يسمعونا .

كانا ولدين في مغارة مخيفة ، كل شيء فيها معتم ومظلم وبارد . الولد الصغير واسمه عبدالقادر . أما محمود فهو أكبر منه . وهو ابن خاله . وكان يرتجف من شدة الخوف . كان خائفا بسبب هذه العتمة الشديدة التي تحيط بهما وهما هنا في جوف المغارة العميقة . وحين همس عبدالقادر في أذنه محذرا هكذا : « اخفض صوتك حتى لا يسمعونا » ازداد خوفه .. اذن فهناك أشخاص مجهولون في مكان أعمق داخل

هذه المغارة • ربما كانوا لصوصا خطرين •• لذلك فانه مد يديه ، مثل الاعمى في هذا الظلام الدامس ، وراح يبحث عن عبدالقادر •• وحين وقعت يده عليه التصق به خائفا مذعورا ، وتمسك به بقوة •

فقال له ابن عمته عبدالقادر هامسا :

ــ مالك ترتجف هكـذا يا محمود ؟•• هل انت بردان ؟

★ بل أنا خائف •• قلت لك انني خائف جدا •• ليتنا ما دخلنا هذه المغارة •• ليتني ما أطعتك •• فهذه المغارة عميقة جدا ومخيفة جدا •

ــ قلت لك اسكت •• دعنا نصغي جيدا حتـى نعرف ما هذا الصوت هناك •• هل تسمع شيئا ؟

أجابه محمود هامسا :

ــ قبل قليل سمعت صوت حجر يصطدم بحجر •

قال ذلك همسا وسكت • وظلت أسنانه تصطك

من شدة الخوف ، وازداد التصاقا بابن عمته عبدالقادر•

والواقع أن ما سمعه محمود صحيح •• فأرض المغارة كلها من الصخور والاحجار • وهي صخور على شكل كرات ملساء ناعمة ، أو لها شكل البيضة ، بحجوم مختلفة كبيرة وصغيرة •• بعضها بحجم قبضة اليد ، وبعضها بحجم بطيخة •• وهي جميعا صخور ملسـاء وباردة ورطبة • لانه يجري فيما بينها تيار ماء بارد • «وهذا الماء لا نعرف من أين ينبع» هكذا قال عبدالقادر لنفسه •

ثم قال عبدالقادر لابن خاله محمود :

ــ ليتني لم أصطحبك معي •• هيا بنا •

★ الى أين ؟

ــ فلنمش •• الا تريدنا أن نعـود ونخـرج من المغارة ؟

فسأله محمود بلهجة اعتذار :

★ أأنت زعلان مني يا عبدالقادر ؟

ــ طبعا أنا زعلان .. أنت خربت علينا المنهاج .. ألم تتفق على أن نظل نمشي في هذا السرداب الى أن نكتشف نهايته ؟ !

★ نعم اتفقنا على ذلك .. ولكنني لم اكن اتوقع ان يكون السرداب طويلا الى هذا الحد ، ومظلما بهذا الشكل المخيف .. ثم انني ..

تيبست الكلمات في فم محمود عندما سمع ــ مرة اخرى ــ صوت حجر يرتطم بحجر . فتشبث بابن عمته بشدة .. ثم همس في أذنه بصوت مرتجف :

★ هل سمعت صوت ارتطام أحجار مع بعضها ؟

أجابه عبدالقادر :

ــ نعم سمعته .. هذا تيار الماء ، حين يجري ،

فانه بشكل طبيعي يحرك هذه الصخور الكروية الملساء فترتطم مع بعضها .

قال محمود :

★ لا .. لا .. أنت تقول ذلك لكي تزيل خوفي فقط ..

فسأله عبدالقادر :

ــ اذن ما سبب هذا الصوت ؟

★ سببه أن هناك في الداخل لصا خطيرا حرك رجله فارتطمت صخور القاع مع بعضها ..

ــ يا مجنون .. لماذا يجيء اللص الى هنا ؟ ماذا يفعل هنا ؟

★ اذن حتما يوجد وحش في الداخل .. ربما كان ضبعا .. ربما كان نمرا ..

ــ هيا بنا نخرج قبل ان تخبرني بأنه يوجد هنا فيــل ..

★ أنت تسخر من كلامي .

ــ اذن فمن أين اخترعت حكاية النمر ؟.. هــل توجد في بلادنا نمور ؟.. هل سمعت أحدا يحكي عن نمر رآه في حياته ؟

★ ولكنهم يتحدثون كثيرا عن الضباع .. عندنا ضباع كثيرة .

ــ يا فهمان .. لو كان يوجد ضبع هنا لكــان أكلنا من ساعة .. هيا بنا .

★

انسحب الولدان . كانا يمشيان بحذر وبتمهــل شديدين .. وكانا يمشيان الى جانب بعضهما وقد جعلا ظهريهما الى الحائط . وكان محمود ــ وهو الكبير ــ

ممسكا بيد ابن عمته عبدالقادر بقوة ، لا يتركه أبدا بل يظل ملتصقا به . وكان يبلع ريقه أحيانا من شدة الخوف وهو لا يصدق بأنهما سوف يخرجان سالمين من هــذه المغارة ، أو السرداب ، او الكهف ، او النفق الطويل جدا والمعتم جدا والبارد جدا .

وكان كل منهما ، عندما يحرك رجله ببطء شديد، يحاول أن تأتي قدمه فوق صخرة جديدة ببطء وحذر شديدين لا لأن هذه الصخور مدببة وقد تجرح قدميه (كانا حافيين ، وكانا في ثياب السباحة ، وسنعرف سبب ذلك بعد قليل) بل لان هذه الصخور الملساء قد تتحرك تحت القدم ، فتتدحرج لانها كروية او بيضوية ، وحين تتدحرج تصطدم ببعضها ، وصوت اصطدامها قد يحول دون سماعهما صوت « الحركشة » المخيفة التــي في الداخل . وهما يريدان أن يظلا منتبهين لذلك الصوت المخيف الذي سمعاه في الداخل ، ليظلا حذرين فــلا يفاجئهما الخطر .. اذ ربما كان هناك نمر بالفعل ..

والنمر حيوان مفترس مخيف ، وله أنياب طويلة وحادة، وله قدرة على القفز قفزة طويلة • وحاسة الشم لديه قوية الى حد أنه يستطيع بواسطتها أن يحدد مكانهما بدقة ، فتأتي قفزته فوقهما تماما ، و •• ويأكلهما وينتهي الامــر ••

هل تحزرون من كان يفكر هكذا ؟

انه عبدالقادر •

ستقولون : ولكن الذي كان خائفا هو محمود •

فأقول لكم : نعم •• هذا صحيح •• ولكـــن عبدالقادر أيضا كان خائفا • لانه هو أيضا انســان • وحالة الخوف حالة طبيعية عند كل انسان • ولكـــن عبدالقادر شجاع لانه عرف كيف يستر خوفه ويتحدث بلسان انسان مطمئن •• بينما هو في الواقع يتمنى ان يصلا الى مدخل النفق بأسرع ما يمكن •• وكان ، وهو يمشي مع ابن خاله بحذر ، يفتح أذنيه جيدا ويصغـي

باتباه شديد لاي صوت أو حركة أو أي شيء يوهـم بأن هناك شخصا أو حيوانا في الداخل • وقـد ينقض عليهما « ذلك الشيء » فجأة في اية لحظة • ومع علمه الاكيد بأن النمور غير موجودة أبدا في هذه البلاد كلها فانه كان يتصور بأن الحيوان المخيف الذي سينقض عليهما فجأة ، من قلب العتمة ، هو نمر •• لذلك كان يصغي باتباه شديد •• لكنه ـ في الواقع ـ لم يكـن يسمع الا صوت خرير المياه وهي تجري بين الصخور تحت أقدامهما •

قال عبدالقادر لمحمود هامسا :

ـ انتبه لحركة قدميك •• اياك وان تحرك قدماك الصخور ••

فقال محمود ، هامسا أيضا :

★ ما أطول هذا النفق !!•• عندما دخلناه لم يكن طويلا هكذا ••

- ربما لاننا عندما كنا داخلين لم نكن خائفين .. فكنا نمشي بعزم وثقة .

فسأله محمود باستغراب شديد :

- عبدالقادر .. أنت أيضا خائف مثلي! يا عبد القادر ؟

- ليس الخوف عيبا يا محمود ..

★ لكنني أحس أن جسدك صار مبللا بالعرق .. رغم أن السرداب بارد .. أنا أيضا جلدي كله ينضح بالعرق .. قولك ان الخوف يسبب هذا التعرق ؟

- لا أعرف .. تعال نغسل وجهينا على الاقل .

★ ولكن الماء بارد .

- أنا أريد أن أغسل وجهي .. لان قطرات العرق نزلت من جبيني الى عيني فصارت تحرقني .

وهكذا سحب عبدالقادر يده من يد محمود حتى

يستطيع ان يجمع الماء بكفيه معا ، وانحنى ليغرف الماء من بين الصخور تحت قدميه ويغسل وجهه .. ولكن .. في اللحظة ذاتها سمع صوتا غريبا .. كان متأكدا هذه المرة .. فتيبس في مكانه وفي اللحظة ذاتها أيضا كان محمود قد رمى بنفسه فوقه من شدة الخـوف وتمسك به بقوة ..

هذه المرة لم ينقطع الصـوت الغريب المريب .. وانما استمر .. طم .. طم .. طم .. طم .. صـوت مخيف مثل صوت ضربات طبل ضخم جدا . لكنها دقات مكتومة كانت تصدر من خلف جدار . أو كأنها صوت وقع قدمي عملاق هائل ، طوله أعلى من طول المئذنة بعدة مرات ، وحين يضع قدمه ترتج الارض .. طم .. طم .. طم .. طم .. طم .. ومر زمن طويل حتى قال عبدالقادر هامسا في أذن ابن خاله :

- هذا صوت ضربات معول .. حتما .. هناك رجل يضرب بمعوله خلف صخور جدار هذا النفـق

العميق ..

★ معك حق .. هذا صوت ضربات معول لرجل يحفر في الصخر .. لكن أين ؟

ـ انه خلف هذا الجدار الصخري هنا حتما .. سآخذ حجرا وأدق به على الجدار .

★ لماذا ؟

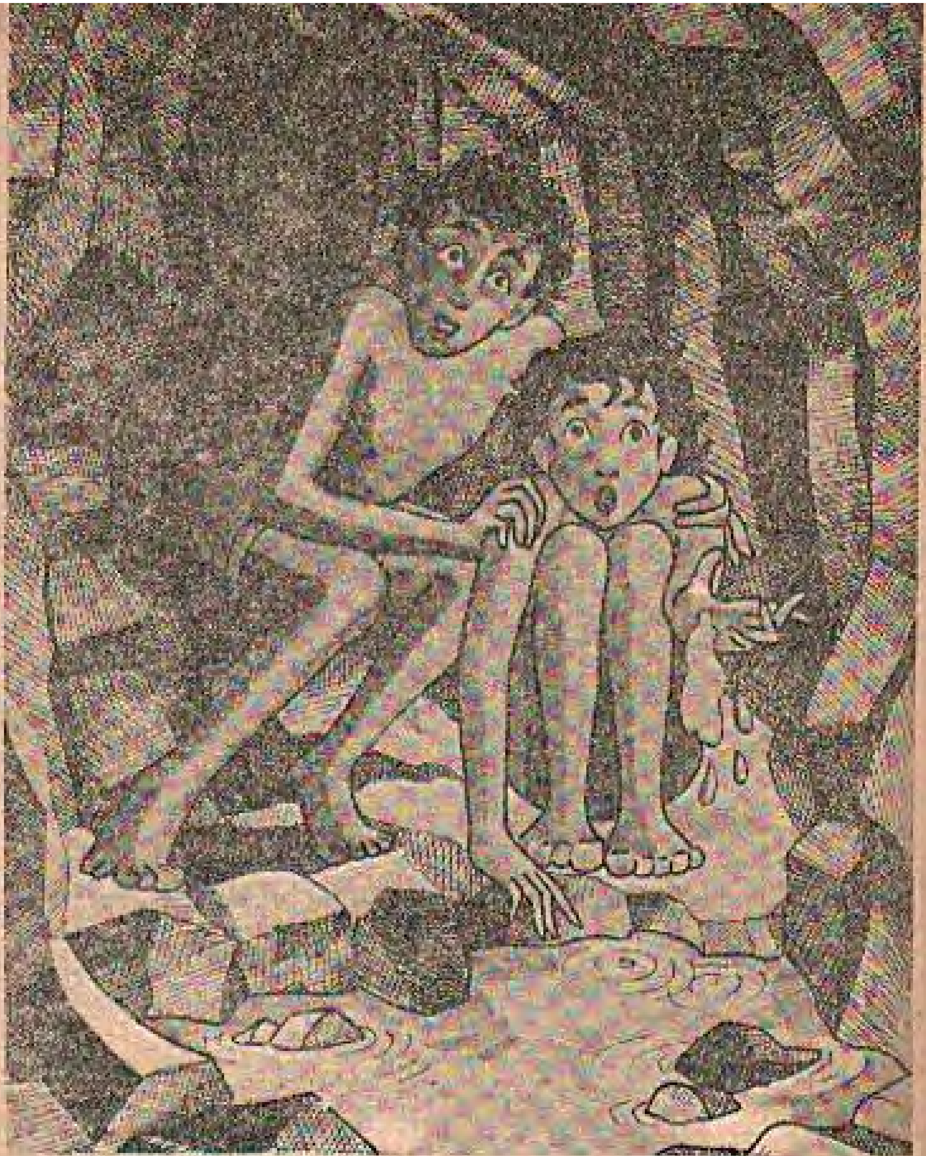
ـ حتى يسمعنا ذلك الرجل فيعرف أننا هنا .

★ وماذا نستفيد لو عرف ؟

ـ نشعر بالاطمئنان .. فالانسان يستأنس ويشعر بالاطمئنان اذا وجد انسانا آخر ..

★ ولكن بيننا وبينه هذا الجدار الصخـــري القاسي . فكيف يأتي لانقاذنا ؟

فقال عبدالقادر : انقاذنا ؟.. تريده أن ينقذنا من أي شيء يا محمود ؟



في تلك، اللحظة رمى محمود بنفسه فوق عبدالقادر وتمسك به بقوة .

★ ينقذنا من هذا الخوف •• يخرجنا من هـذا السرداب •

ـ علينا أن نعتمد على أنفسنا •• مثلما دخلنا نخرج •

★ ولكننا عندما دخلنا لم نمشي اكثر من حوالي خمس دقائق •• اما الان فها نحن نمشي منذ ساعة ولم نخرج •

ـ ماذا تقصد يا محمود ؟

★ أعتقد أننا تهنا وضيعنا الدرب •

ـ أي درب يا ابن خالي ؟•• السرداب سرداب •• انه نفق واحد طويل في قلب الجبل • ونحن دخلنا فيه وسنخرج منه •

★ ومن قال لك ان هذا السرداب ليس فيه تشعبات ، مثلما يتفرع عن الشارع العريض عدة شوارع

جانبية •• أظن أننا ، في هذه العتمة الشديدة ، دخلنا في سرداب فرعي دون ان ننتبه • لا تترك يدي يا عبد القادر فأنا خائف جدا •

— أعرف أنك خائف • لانني أنا أيضا خائف •• ولكن هل تنشغل بالخوف ونقعد ؟

★ اذن ماذا نفعل ؟

— نحاول ان نخرج من هذا الخوف — يجب ان نخرج من هذا السرداب •

★ كيف ؟

★ لو أنني جلبت معي مصباح البطارية الذي أهديتني اياه •• لو أننا جلبنا معنا حبلا طويلا •• ليتنا كنا وضعنا علامات على الطريق أثناء دخولنا السرداب •

— لو •• ليت •• لو •• ليت •• الندم لا يفيد يا محمود •• فنحن الان واقعون في ورطة وعلينا ان

نشغل عقولنا حتى نجد طريقة للخروج •• أنا جوعان •• وأنت ؟

★ انني أكاد أموت من الجوع •• ليتنا جابنا معنا زوادة •

— ها قد عدت الندم والتمني •• يا عبدالقادر ، بدلا من ذلك ، فكر بأهلك •• أظن ان خالي وزوجة خالي قلبوا الدنيا بحثا عنا •

★ ماذا سنقول لهم اذا وجدونا ؟

— لا أدري ••• ولكن يبدو أن كلامك صحيح •• فنحن قد ضللنا الطريق ودخلنا في سرداب فرعي ولن نعرف كيف نستدل على السرداب الرئيسي أبدا •• ولنفترض أننا عدنا الى السرداب الرئيسي فكيف نعرف جهة المدخل ؟••

وهكذا جلس الولدان المسكينان مفكرين •• وكان صوت ضربات المعول المكتومة ما يزال مستمرا

خلف الجدار الصخري : طم .. طم .. طم .. طم ..

من هو ذلك الرجل المجهول الذي يحفر الصخر هناك في قلب الجبل ؟

ليس الآن وقت الاجابة على هذا السؤال .. فالمهم الآن ان تعرف ماذا حدث عندما جاء أبو محمود الى بيته ، لتناول طعام الغذاء : فلم يجد ابنه محمود ولا ابن أخته عبدالقادر .

★

- ٢ -

عندما وصل أبو محمود الى البيت ، بعد أن صلى الظهر في مسجد السوق ـ وهو المسجد الوحيد في قرية (المحظوظة) كانت زوجته قد انجزت الخبز في التنور . كانت رائحة ارغفة الخبز الطازج شهية ولذيذة . كما ان ام محمود استغلت حرارة التنور فوضعت فيه فروجين لن يلبثا أن ينضجا فتقدمهما لزوجها قائلة بسعادة :

ـ تذوق هذا الدجاج المشوي بالتنور وخبرني ان كنت أكلت اطيب منه .

فيبتسم ابو محمود مسرورا ويقول :

ـ عاشت يداك يا أم محمود .. فأنت ، والله ،

نعم الطباخة الماهرة •• لكنك لـم تخبريني في الصباح بأن غداء اليوم سيكون دجاجا مشويا •

قالت :

ـ محمود طلب هذه الاكلة •• قال انه يريد ان يؤكد لابن عمته عبدالقادر ان دجاج القرية المشـوي في التنور أطيب وألذ من دجاج المدينة المشوي في فرن الغاز ••

فقال :

ـ محمود يحب ابن عمتـه عبدالقادر كثيرا •• ولكن مالي لا أراهما في البيت ؟

ـ لا تشغل بالك يا ابا محمود •• فلقد ذهبا مع ابن جيراننا داشر الى « بحرة السبع سمكات » ليسبحا هناك • وذهب معهم للسباحة أيضا ضرغام وجاسـم ورضوان بن المختار واخرون كثيرون •• كانوا مبتهجين جـدا •

ـ المهم ان ابننا محمود سعيد جدا بوجود ابن اختي عبدالقادر عندنا •• وهما يحبان بعضهما كثيرا • وأعتقد أنهما الان مسروران باللعب والسباحة عنـد بحرة السبع سمكات •• لكنني استغرب بقاءهما هناك الى هذا الوقت •

سألته الام بشيء من القلق :

ـ هل عليهما أي خطر في بحرة السبع سمكات ؟

فأجابها :

ـ لا تشغلي بالك أبدا •• فبحرة السبع سمكات عمرها ما كان فيها اية سمكة •• لانها ، كما تعرفين ، عبارة عن بركة ماء صغيرة ، لا يزيد عمقها عن قامة رجل ومن المستحيل ان يغرق فيها احد •• اذن هات دجاجـة يا أم محمود ولنأكل باسم الله •• فأنا جائع جدا وأريد أن آكل وأرجع الى السـوق ••

ـ يعني •• لن ننتظرهما ؟

ـ احتفظي لهما بالدجاجة الثانية •• وستجدين أنهما حين يصلان سوف يأكلان بنهم شديد • لان السباحة تفتح الشهية الى الطعام بشكل رائع •

وضعت أم محمود طبق القش الملون أمام زوجها الجالس على المصطبة ، تحت ظلال دالية العنب وجلبت خبزا ساخنا ، وصحن لبن ، ورأس بصل ، ومملحة ، ثم جلبت من التنور فروجا حارا له لون يشبه لون جناح الدبور •• وعندما مد ابو محمود يده ليأخذ فخذ الدجاجة سمع صوت الشيخ سهل ينادي من خلف باب الدار :

ـ يا ابا محمود •• هل أنت هنا ؟

فصاح أبو محمود بفرح :

ـ تفضل يا شيخ سهل •• ادفع الباب وادخل أهلا وسهلا بك •

وحين دخل الشيخ سهل كان معه كلبه « قطاش »

وصرة ثياب ما ان رأتها أم محمود حتى صرخت مذعورة:

ـ ولدي •• هل حدث شيء لولدي ؟•• هل غرق محمود ؟!

نبح الكلب « قطاش » خائفا من صراخ هذه الام المسكنية ، واختبأ خلف صاحبه الشيخ سهل الذي لم يعد يعرف كيف يشرح الامر • خصوصا وأن الجيران جاءوا بسرعة ملهوفين مضطربين ، ليعرفوا ماذا أصاب جارتهم الطيبة أم محمود التي ملات الدنيا بكاء وعويلا ونواحا على ابنها الذي ظنت أنه مات • مما اضطر الشيخ سهل لان يصرخ بأعلى صوته :

ـ ياناس •• ياعالم •• الولد لم يغرق •• صحيح أن هذه ثيابه ولكنه لم يغرق •

صمت الجميع ونظروا الى الشيخ سهل بعيون متلهفة لمعرفة الحقيقة •

سأله أبو محمود .

ـ اذن فاين محمود ؟ .. واين ابن عمته ؟

ـ لا أحد يعرف .. هذه هي الحقيقة .. الولدان مفقودان ، وعلينا أن نهب جميعا ، وبسرعة ، للبحث عنهما بحثا حقيقيا .. اجلسوا جميعا .. اجلسوا بنظام وهدوء ولنفكر معا بتأن وهدوء أيضا .. فلنفكر تفكيرا حقيقيا حتى نضع خطة للبحث عن الولدين .

الجميع أطاعوا أوامر الشيخ سهل وجلسوا صامتين ، فهم معتادون منذ الصغر على أن يطيعوه .. فهو المعلم الوحيد في قرية (المحظوظة) ، وهو حلاق القرية ، ودكانه في السوق لصق باب المسجد ، وهو أيضا خبير بقلع الاسنان المنخورة .. والحلاقة وقلع الاضراس المؤلمة تكون بعد صلاة العصر من كل يوم ، وبفلوس .. أما تعليم الاولاد فموعده من الصباح الى صلاة الظهر ، ويكون في المسجد ، مجانا لوجه

الله تعالى .. وربما ، لهذا السبب ولان الشيخ سهل يحكي للاولاد اثناء التدريس حكايات طريفة عن الكنوز والمغامرات المدهشة ، فأن أطفال القرية يحبونه .

وهكذا فان داشر وضرغام وجاسم ورضوان بن المختار ورفاقهم الذين كانوا يسبحون في بحرة السبع سمكات ، لجأوا الى أستاذهم الشيخ سهل ، عندما وجدوا ثياب محمود وعبد القادر ، وبحثوا عنهما في كل مكان حول البحرة فلم يعثروا لهما على أثره فقال له داشر وهو في حالة قلق واضطراب شديدين :

ـ سبحنا ساعة ياشيخنا ، ثم ارتدينا ثيابنا لنرجع الى بيوتنا ، فظلت ثياب محمود وعبد القادر في مكانها ، آنذاك انتبهنا الى غيابهما ، فتساءلنا عنهما .. ترى أين ذهبا ؟ .. فبحثنا عنهما في كل مكان فلم نعثر لهما على أي أثر .. واننا لانجرؤ على أن نأخذ ثياب محمود الى أمه ، ونرجوك أن تأخذها أنت .

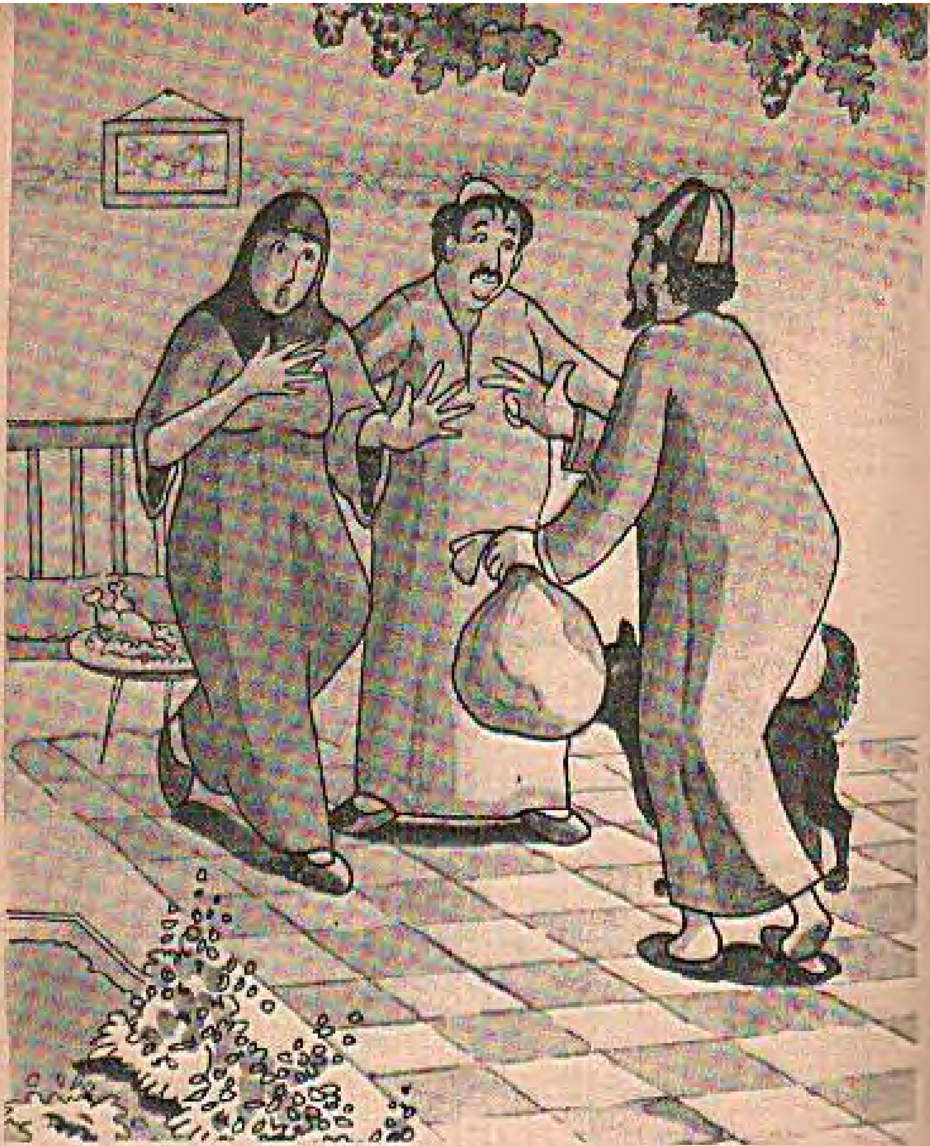
فقال لهم استاذهم الشجاع : هاتوا صرة الثياب •• وتعالوا معي •

ثم نادى على كلبه « قطاش » ومشى •• ذلك لانه كان يصطحب كلبه معه أينما راح •• ثم انه التفت الى كلبه قائلا :

ـ اليوم يومك ياقطاش •• سنرى ان كنت كلبا بوليسيا حقيقيا فتكتشف لنا مكان الولدين •• وأرجو أن لاتكون حيوانا خاملا أبله لانفع منك •

فهز الكلب ذنبه ونبح مرة واحدة كأنه يريد أن يقول : أنا موافق على هذا الامتحان •

★



حين دخل الشيخ سهل كان معه كلبه « قطاش » وصـرة ثياب

- ٣ -

كان كل أهل القرية تقريبا قد اجتمعوا في بيت أبي محمود ، لان الخبر المقلق انتشر بسرعة فجاء الجميع راكضين ، بمن فيهم المختار أبو رضوان • وقد جلس الجميع مفكرين • وحتى الذين ظلوا واقفين ـ بسبب ضيق المكان ـ فانهم وقفوا صامتين مفكرين • انهم جميعا يفكرون ـ تنفيذا لاقتراح الشيخ سهل الذي يحترمونه لانه أستاذهم ـ يفكرون بايجاد طريقة للبحث عن الولدين •• ما عدا الكلب قطاش فانه كان ينظر من مكانه الى الدجاجة المشوية التي ما تزال على حالها أمام أبي محمود ، ويقول لنفسه : « متى يأكلون هذه الدجاجة ويرمون بعظامها الي حتى أقرقشها بأسناني

وأتلذذ بطعمها ؟ ! » •

قال المختار لابي محمود وهو يشير بيده الى الطعام الذي لم تمسسه يد :

ـ ما لك لاتتغدى يا أبا محمود ؟!•• كل يارجل •

فأجابه أبو محمود حزينا :

ـ كيف آكل وابني ضائع يامختار ؟!•• بل كيف أستطيع أن أبلع اللقمة ؟ •• ريقي ناشف وحلقي يابس••
آنذاك رفع الشيخ سهل رأسه وقال :

ـ انتهى الموضوع •• لقد وجدت فكرة ممتازة •• فكرة حقيقية ان صح التعبير •• لقد قررت أن نستعين بقطاش •

فسأله الجميع مندهشين :

ـ الكلب قطاش ؟!

أجابهم : أي نعم •• ان لديه حاسة شم قوية جدا • وهو يعرف كل انسان من رائحته •

سئل : وكيف نجعله يعرف رائحة الولدين الضائعين ؟!

أجاب : نشممه رائحة ثيابهما • •ثم نطلقه بعد ذلك فترونه يعدو راكضا الى المكان الذين يوجد فيه محمود وابن عمته •• يلحق الرائحة •• يتبع أثر الرائحة •

ولم ينتظر الشيخ سهل أية موافقة • بل نهض يقرب صرة الثياب من أنف الكلب ، وقال له :

ـ ياقطاش انتبه لكلامي انتباها حقيقيا •• هذه ثياب ولدين كانا يسبحان ولم نعد نعرف أين هما الآن•• شم رائحتهما من هذه الثياب ثم اذهب ودلنا على مكانهما •• هيا •• اركض •• انطلق •
ولكن الكلب النشيط لم ينطلق ولم يركض ، بل

انه لم يتحرك من مكانه .. كل ما فعله أنه نبح مرة واحدة ، قال : « عو » ثم سكت .

فالتفت الشيخ سهل الى الحاضرين وقال :

ــ يبدو أنه يريدني أن أذهب معه .. وهذا حقه طبعا .

ثم قال لكلبه :

ــ سأذهب معك .. امض بنا .. امش أمامي وأنا أمشي خلفك .

★

حين خرج الشيخ سهل وكلبه النشيط خرج الجميع تقريبا خلفه . كانوا يريدون أن يروا كيف أن هذا الحيوان الذكي سوف يحل المشكلة . ولم يبق من العثور...

أما النساء فقد تجمعن في غرفة ثانية حول أم محمود المسكينة الملتاعة التي كانت تبكي وتضرب بيديها على صدرها وركبتيها وكأنها صارت قانعة بأن ابنها قد مات وانتهى الامر . وكانت النساء تحاول مواساتها وتهدئة نفسها وحثها على الصبر .

وحين كانت أم محمود تبكي بصوت مسموع ، بحيث يسمعها الرجال الجالسون في باحة الدار ، كان أبو محمود يلتفت نحو نافذة الغرفة غاضبا ويأمرها بأن تتوقف عن البكاء . فيقول له المختار بلطف :

ــ دعها تبكي يا أبا محمود .. فأنت لاتعرف قلب الأم .

ــ الصبر طيب يامختار .. ثم اننا لم نفقد الامل من العثور على الولدين .. بل اننا ــ بالاحرى ــ لم نبدأ بالبحث عنهما جديا بعد .

فيقول الناطور حسين الاعرج :

ـ أين اختفى الولدان ؟ •• أنا أعرف المنطقة شبرا
شبرا ، ليس فيها بستان حتى نقول انهما هناك •• ليس
فيها مغارة •• ليس فيها أي شيء خطر •• هنا بحرة
السبع سمكات (ورسم بعصاه شكل دائرة على أرض
الدار الترابية) وهنا في شرقي البحرة سهل منبسط ••
وهنا في غربي البحرة سفح الجبل • وهذا السفح ـ
تعرفونه جيدا ـ فيه كتل صخرية ضخمة ، وفيه أعشاب
شوكية كثيرة ، ولكن ليس فيه أية مغارة •• ونحن
جميعا نعرف ذلك •• اذن أين اختفى الولدان ؟!••
لو كان عندنا جب لقلنا انهما ـ لاسمح الله ـ سقط
في الجب ••

فانتفض أبو محمود قائلا باستفهام :

ـ كيف تقول انه لاجب عندنا ؟ •• وجب أم
فرحان ؟ •• كيف نسيته ياحضرة الناطور ؟ •• هـ
يوجد في قريتنا من لا يعرف جب أم فرحان ؟

فتدخل المختار في الحديث قائلا :

ـ ياجماعة لاتستعجلوا •• ولا تندفعوا مع
الاوهام والخيالات •• صحيح أننا جميعا نعرف جب أم
فرحان ، ولكن البحرة تقع في أسفل الجبل ، بينما الجب
موجود في أعلى الجبل •• أي أن على الانسان أن
يصعد سفح الجبل كله حتى يصل الى الجب •• وأنتم
تعرفون أن تسلق هذا السفح عمل صعب • لانه سفح
واقف مثل الجدار ، وكله صخور حادة ، وبينها نباتات
شوكية مؤذية •• ولو أن محمود وابن عمته أرادا زيارة
جب أم فرحان لما صعدا اليه من هذا الطريق الصعب ،
ن المستحيل ، خصوصا وأنهما في ثياب السباحة •

كان المختار ، خلال ذلك ، قد رسم خريطة الموقع
على الارض ، وهي كما في الخارطة الاولى •

كان كلام المختار صحيحا ، وتشخيصه لمواقع
الأحداث صحيحا أيضا •ولكن لو أنه كان الآن مع

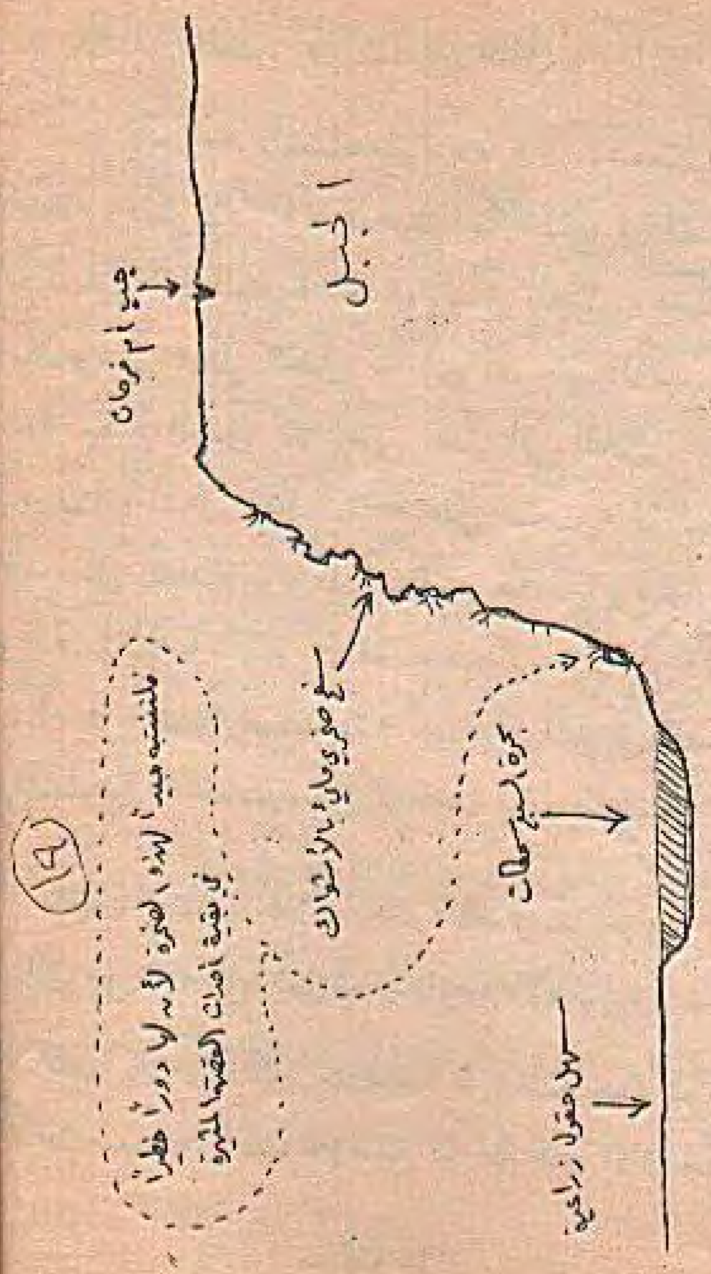
الولدين محمود وعبد القادر ، في أعماق السرداب المظلم الرهيب في جوف الجبل ، اذن لاستطاع أن يضيف الى « الخريطة » تفاصيل هامة ومثيرة جدا . وهي تفاصيل توضح لنا سر ضياع الولديـن ، كما تجيب في الوقت ذاته على السؤال التالي :

ــ من أين تنبع مياه بحرة السبع سمكات ؟ .. ولماذا لاتجف هذه البحرة في الصيف ؟

وهو سؤال طالما طرحه أهل قرية « المحظوظـة » على أنفسهم دون أن يجدوا له جوابا .

اذن فلو أن الولدين خرجا سالمين من هذه الورطة الخطرة لاجابا على هذا السـؤال القديم ، ورسما الخريطة ذاتها ولكن كما في الخارطة رقم (٢) .

ونحن اذا تأملنا هـذه الخريطة تأملا حقيقيا ــ حسب طريقة الشيخ سهل في التعبير ــ لفهمنا سر كل الذي جرى ..

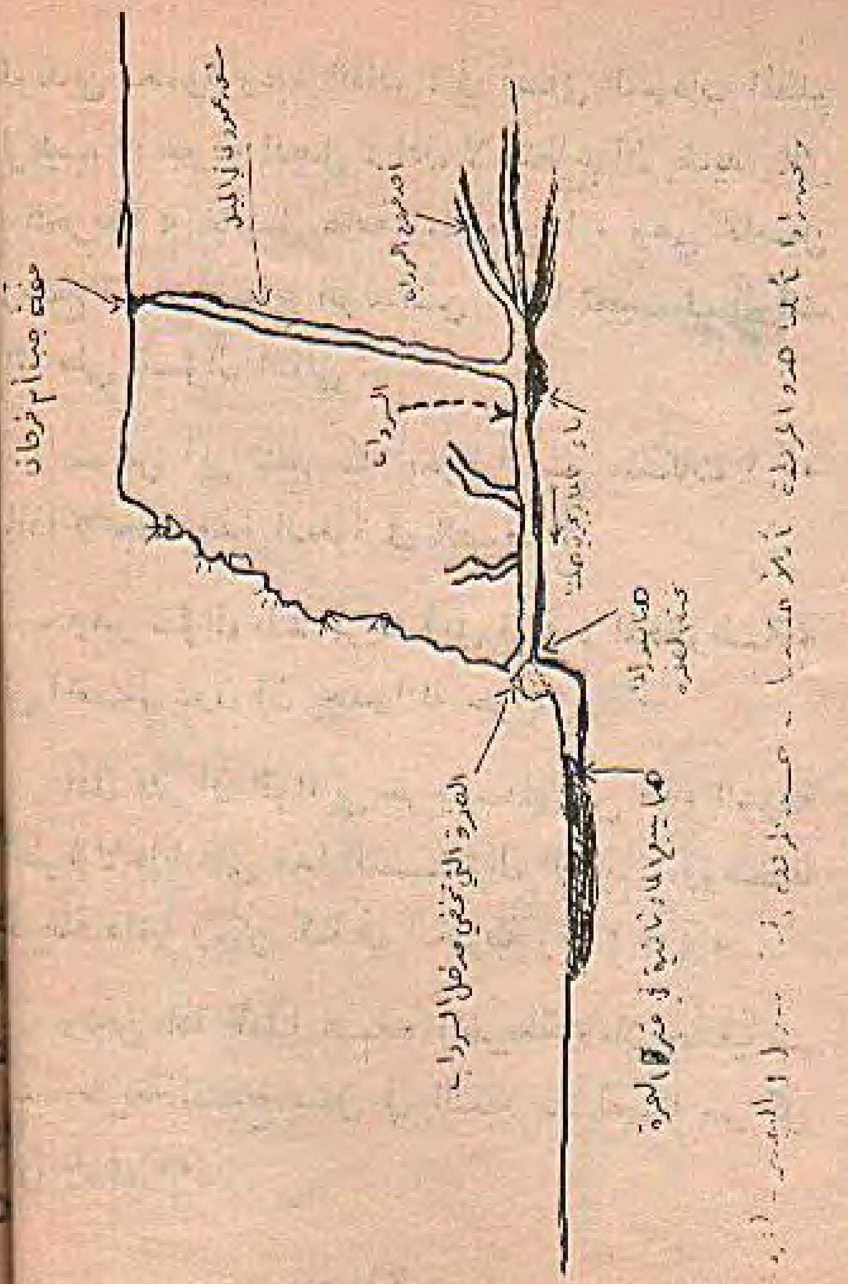


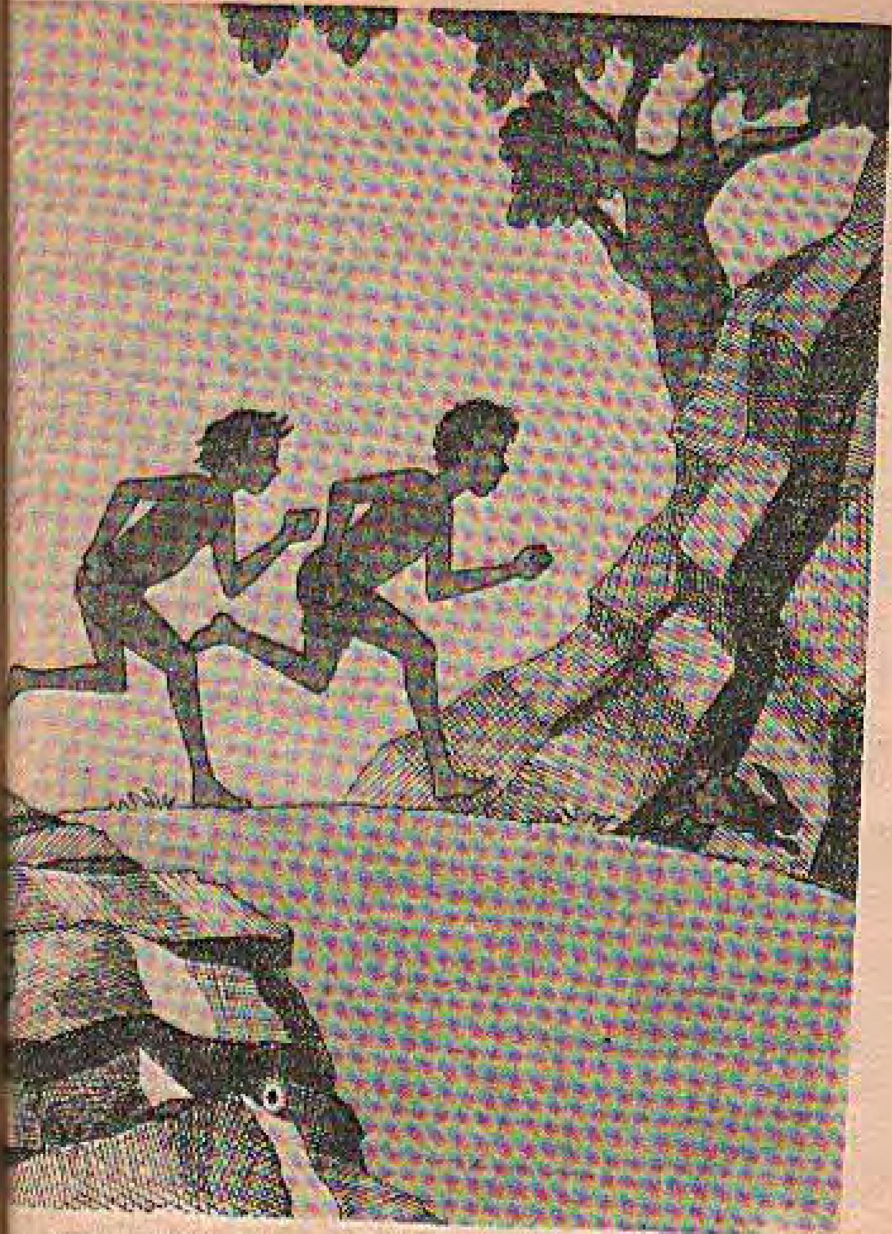
فعندما كان الاولاد يسـبحون لمح عبد القادر أرنبا ، فكاد عقله يطير من الفرح ، فهمس في أذن ابـن خاله محمود ـ حتى لايسمعهما الآخرون ـ وأقنعه بأن يخرجا من البحرة بغفلة مـن رفاقهما ، فيلحقا بالارنب من غير أن يراهما الاولاد الاخرون ، حتى لايشاركوهما في الغنيمة .

وهذا ماحدث فعلا ..

ركض الارنب فلحق به الولدان .

كان الارنب يتوقف أحيانا ، يتوقف لحظة ، فيرفع أذنيه ويديرهما الى عدة جهات ، وعيناه واسعتان وأنفه يرتجف ، ثم يقفز بسرعة قفزات واسعة ، الى أن وصـل الى تلك الصخرة الكبيرة التي عند أسـفل الجبل ، يتغلغل تحت أشواك وغل كثيف كله نباتات شـوكية يابسة وحادة . لكن الارنب تغلغل تحت تلك الكومـة من الاشواك واختفى .





ركض الارنب فلحق به الولدان

فرح عبد القادر فرحا عظيما وقال لمحمود :

ـ مؤكد أن الارنب اختبأ في وكره هناك .. اذن فنحن اذا وصلنا الى الوكر ، وحفرنا ، نستطيع أن نمسك به حيا هــو وزوجته وأولادهما الارانب الصــغيرة الكثيرة . وستكون غنيمة مدهشة وعظيمة تعال نقتلع كل هذه الاشواك .

تعذب الولدان كثيرا وهما يقتلعان دغلة الاشواك اليابسة التي تغلغل الارنب تحتهــا ، خلف الصــخرة الكبيرة . ومما زاد من آلامهمــا أنهمــا كانا في ثياب السباحة فامتلأ جلداهما بالجروح . .ولكنهما عندمــا نظفا المكان خلف الصخرة بأيديهما الدامية مــن كثرة الجروح لم يجدا أرنبا كبيرا ولا ارانب صغيرة . وانما وجدا فتحة مغارة .

ما هذه الفتحة العجيبة ؟

انها مدخل الى سرداب أو مغارة أو كهف أو نفق

طويل في قلب الجبل • وهو نفق لم يكتشفه أحد قبلهما
بسبب هذه الصخرة الكبيرة التي تكاد تغطي المدخل ،
وبسبب كتلة الاشواك التي كانت تخفي هـذه الفتحة
خلفهـا ••

ما العمـل ؟

قال عبد القادر بحماسة وفرح شديدين (نسي
آلام الجروح التي سببتها الاشواك الحادة اليابسة) :

ـ تعال يامحمود •• تعال ندخل في هذا النفق •

قال ذلك ودخل في النفق فعلا من غير أن ينتظر
جواب محمود الذي وقف حائرا وخائفا • فمن التهور
والمخاطرة أن يغامر الانسان بدخـــول مكان كهذا :
مجهول ، وغير مأمون ، ثم مايدرينا أنه وكـر ضبع
مثـلا ؟ •

هكذا سأل محمود نفسه ، وقد نسى آلام جروحه
الكثيرة •• ثم انه ، وقد وقع في هذا الاحراج الكبير ،



مؤكد ان الارنب اختبأ في وكره هناك

قال لنفسه أيضا : (الاصول أن لا أدخل مثل هـــذا المكان المجهول من غير أن يكون معي سلاح ، ســـكين على الاقل ، ويجب أن يكون معي أيضـــا مصباح ، وحبل •• ويجب أن أرتدي ثيابا مناسبة) •

آنذاك سمع صوت ابن عمته عبد القادر يناديـه من داخل السرداب قائلا :

ـ مالك لم تجرؤ على الدخول يامحمود ؟ •• هل أنت جبان ؟ •• ولماذا أنت خائف ؟ •• وكيف تقول انكم يا أولاد الريف أشجع منا نحن أولاد المدينة ؟

وبذلك اضطر محمود لان يدخـــل الســـرداب مرغما •• وكانت ورطة لانهاية لها •• فقد كانا كلما تعمقا في التغلغل داخـــل السرداب خطوة يزداد الظلام ويزداد الخوف أيضا ، ولكن عبد القادر كان يمضي في التهور قـــائلا :

ـ فلنمش خطوة أخرى •• لعلنا نكتشف نهاية

هذا السرداب •• ألا تريد يامحمود أن يقولوا عنك انك أشجع فتيان « المحظوظة » لانك أول من اكتشف هذا السـرداب ؟ •

وعندما حطت قدمه فوق مياه باردة جارية، في بداية العتمة ، قال بفرح أيضا :

ـ يالحسن حظنا يامحمود !• هل تعرف ما هذه المياه ؟ •• انها تأتي من داخل السرداب فتغور هـنـا عند هذه النقطة ، ثم تنبع مرة ثانية في قعر بحرة السبع سمكات •• تهانينا ياعم •• سيقولون عنك انك أول من اكتشف مصدر مياه البحرة •• هيا بنا ندخل اكثر حتى نكتشف مصدر هذه المياه في العمق •

● أرجوك يا عبدالقادر •• دعنا نرجع فأنا لا أريد هذه الاكتشافات •

ـ أأنت خائف ؟

● الى أين تريدنا أن نمضي ؟ •• لقد صار كل ماحولنا مظلما ومعتما •

ـ لا بأس •• فلنمش بضع خطوات أخرى لعلنا نصل الى نهاية السرداب •

● يا عبدالقادر هذا غلط •

ـ تعال •• لاتخف •• أنا معك •• تعال •• فقد نكتشف كنزا •• من يدري ؟!•• ألا تفرح اذا وجدنا كنزا ؟ •• الذ شيء في الدنيا أن يعثر الانسان على كنز •

● يا عبدالقادر كفاك أوهاما وتخيلات •• فنحن ، حتى لو كان يوجد هنا كنز ، لن نستطيع أن نراه في هذه العتمة •• انني ماعدت أرى شيئا على الاطلاق ••

ـ مسكين أنت يا محمود •• كأنك لا تعرف بأن الكنز يتوهج بأنوار ساطعة مدهشة •• ألم تسمع أية حكاية عن الكنوز ؟

● بلى •• الشيخ سهل كان يحكي لنا حكايات جميلة جدا عن أناس وجدوا كنوزا ••

ـ وكنتم تصدقونه ؟•

● هو نفسه كان يصدق حكاياته اكثر منا •• وكم من مرة راح يحفر هنا وهناك بحثا عن كنز •• كان يقول دائما : اذا وجدت كنزا سأبيعه لابني بثمنه مدرسة عظيمة في المحظوطة •

وهكذا فان عبدالقادر ، الذي كان شديد الحماسة للوصول الى نهاية السرداب ، كان يلهي ابن خاله الاكبر منه بمثل هذا الكلام حتى ضاعا في جوف السرداب المظلم ، وحدث معهما ما حدث مما عرفناه سابقا •

وها ان الوقت يمضي بسرعة ، وكان يحين موعد أذان العصر ، وهما ما يزالان تائهين في جوف الجبل •

فهل ان أهل القرية سوف يكتشفون مكانهما ؟••

هل ان حاسة الشم القوية التي يمتاز بها قطاش ستدل أهالي المحظوطة على مدخل السرداب الخفــي وراء الصخرة الكبيرة ؟

★

— ٤ —

كان قطاش كلبا عجوزا ، متهدل الاذنين ، خاملا ، ناعس الجفنين ، هزيلا بليدا ، بطيء الحركة • ولهذا فأن أهل القرية لم يستغربوا أبدا أن يروه يمشي خلف صاحبه بدلا من ان يمشي امامه ليدله على الطريق الذي يؤدي ـ بتتبع أثر الرائحة ـ الى مكان الولدين •

بل ان (قطاش) ، بدلا من ان يرفع رأسه ليشم الرياح ويحزر أين مكان الولدين ، كان يظل مطأطئا رأسه يشم التراب عند أبواب البيوت لعله يجد عظمة قديمة يأكلها • فقد كان جائعا جدا •

وهكذا يئس الناس منه ، وراحوا يتراجعــون واحدا بعد واحد الى دار أبي محمود لعلهم يسمعون

خبرا هناك ، يطمئنهم على مصير الولدين •

اما الشيخ سهل ذاته ، الذي اخزاه كلبه على هذا النحو المخجل ، فانه لم يضرب الكلب ولم يؤنبه ، وانما مضى مع كلبه ، الى خارج القرية ، باتجاه بحرة السبع سمكات ، او الى (مكان الجريمة) حسب تعبيره ••

كان يقول لكلبه معاتبا :

ـ أهكذا أخجلتنا أمام الناس ياقطاش ؟•• والله لولا صحبتنا الطويلة لطردتك كما تطرد الكلاب •

فيقول له داشر :

ـ لا تزعل عليه يا شيخنا •• فربما لم يكن قطاش كلبا بوليسيا •

كان داشر هو الولد الوحيد الذي ظل مع الشيخ سهل وكلبه • وفيما رجع الاخرون جميعا الى القرية فان هذا الفتى داشر وجد ان من واجبه حيال أستاذه ان

يظل معه ، ليواسيه ، ويحمي الكلب من غضبه • اذ ربما كان (شيخنا) قد قرر ، فيما بينه وبين نفسه ، أن يأخذ الكلب الى مكان بعيد فيطرده او يضربه بحجر على رأسه •• والا فلماذا مشى به بعيدا عن بيوت القرية هكذا ؟

قال داشر ، وهو يمشي خلف الشيخ سهل وقطاش :

ـ سامحه يا شيخنا •• سامحه فهو كلب لطيف ••

ونحن نحبه •• كل أولاد المحظوظة يحبون (قطاش)• لذلك أرجوك أن لا تقتله •

فتوقف الشيخ سهل وقال متسائلا باستغراب :

ـ ومن أخبرك بأنني سأقتله ؟

● اذن الى اين أنت ذاهب به ؟

ـ أتريد الصدق ؟•• لا أدري •• دعنا نواصل

المشي ، وبعد ذلك يفرجها الله •• أما ان ارجع الى القرية مع هذا الكلب الخائب ، قبل ان يجدوا الولدين، فهذا مستحيل •

وكانوا قد وصلوا الى بحرة السبع سمكات •

فقال الشيخ سهل لتلميذه النجيب :

ـ ها قد وصلنا الى مكان الجريمة يا شيخ داشر •• والان عليك ان تخبرني كل شيء وبدقة حقيقية •• أين كانت هذه الثياب ؟•• هل لاحظتم آثار أقدام مبللة فوق التراب الجاف ؟•• أريد ان اعرف ادق التفاصيل حتى اكون تصورا حقيقيا عن الحادثة •

في تلك اللحظة نبح الكلب فجأة وانتفض متنبها متحفزا وهو ينظر الى ناحية معينة هناك عند سفح الجبل •• ثم نبح مرة ثانية وانطلق راكضا بسرعة وبنشاط عجيب •• فرمى الشيخ سهل صرة الثياب من يده وركض خلف الكلب وهو يصيح بحماسة :

ـ أرنب •• أرنب ••

فقال داشر الذي كان يركض خلفه •

ـ أنا ايضا رأيته •• انه ارنب كبير ••

فقال الشيخ سهل باعتزاز ، وهما يركضان معا :

ـ سوف ترى الان كيف يصطاده قطاش ويجلبه لنا •• مستحيل ان لايصطاده قطاش •• هذا كلب حقيقي ••

فقال داشر :

ـ ولكننا يا شيخنا ما جئنا لنصطاد أرانب •• نحن يهمنا الان ان نجد رفيقنا محمود وابن عمته عبدالقادر •

رد عليه الشيخ سهل قائلا ، وهو يلهث :

ـ نصطاد هذا الارنب الان •• وبعد ذلك يفرجها الله •

كان الارنب النشيط يقفز قفزات واسعة مسرعا باتجاه الصخرة الكبيرة التي في أسفل السفح ولكن الكلب قطاش كان يعدو خلفه بسرعة مدهشة • ولا أحد يدري من اين جاءه كل هذا العزم والنشاط والحيوية•• كان مصرا على ان يلحق بالارنب ويمسك به •• غير ان الارنب ما لبث ان اختفى خلف تلك الصخرة الكبيرة ، فلحق به قطاش ايضا • لكنه توقف هناك وراح ينبح•• لكن نباحه كان ، على غير العادة ، له صدى • كأن الصوت يدخل الى مكان عميق ثم يعود فيخرج ثانية مثل الصدى ••

وحين وصل الشيخ سهل وداشر الى ذلك المكان، وكانا يلهثان وقد تجرحت ايديهما لكثرة ما اصطدمت بالنباتات الشوكية الحادة ، لم يجدا اي اثر للارنب •• ولا شيء امامهما الا نباح الكلب في فتحة سوداء خلف الصخرة تشبه فم التنور ، وصدى النباح الذي يخرج ثانية من تلك الفتحة التي تتسع لمرور شخص

كبير ، ولكن بصعوبة ••

تساءل الشيخ سهل مستغربا ومندهشا :

ـ ما هذا ؟•• من حفر هذه المغارة الضيقة المخيفة هنا ؟•• مستحيل ان يكون هذا وكر ارنب •• ابدا •• وكر الارنب يكون اضيق من هذه الفتحة بكثير •• هذه مغارة حقيقية •

وكان الكلب مستمرا في النباح وهو ينظر الى مدخل المغارة ويريد ان يدخلها فلا يكاد ويمد رأسه فيها حتى يتراجع خائفا •• فينبح بغضب واصرار •• وينظر الى الشيخ سهل الذي كان يحدث نفسه قائلا باستغراب شديد :

ـ عمري ما سمعت احدا في قرية المحظوظة يتحدث عن مغارة هنا في الجبل ••

فقال داشر :

ـ ولكن ربما كان محمود وابن عمته هما اول

من اكتشف هذا المدخل للمغارة اليوم •

ـ ما هذا الكلام يا شيخ داشر ؟ (كان الاستاذ الظريف يمنح تلاميذه لقب « شيخ » لتشجيعهم كلما سمع من احدهم كلاما يدل على ذكاء) ما الذي جعلك تستنتج هذا الاستنتاج ؟

أجابه داشر :

ـ لانني لاحظت ان هذه المنطقة مليئة بالنباتات الشوكية الكثيفة التي جرحت ايدينا •• ما عدا هذه الفسحة الصغيرة هنا خلف الصخرة •• انظر اليها كيف انها نظيفة كأنما جاء شخص واقتلع ما كان فيها من اشواك ورماها بعيدا •• مؤكد يا شيخنا ان ادغال الاشواك التي كانت هنا كانت تحول بين الناس وبين رؤية هذه المغارة ؟!!

كان قطاش مواصلا نباحه الغاضب •• كان ينظر الى مدخل المغارة المخيف وينبح فيه ، ثم يلتفت الى

صاحبه فينبح ، ولكن صاحبه الشيخ سهل لم يكن يهتم به ، وانما كان يفكر (تفكيرا حقيقيا) بالاستنتاج الذي طرحه تلميذه داشر •• ومما زاد من ميله لتصديق كلام داشر انهما وجدا كمية من الاشواك المقتلعة مرمية على بعد خطوة منهما ••

كان الشيخ سهل يريد ان يقول لتلميذه النجيب :

ـ اعجبتني كثيرا يا شيخ داشر •• انك تفكر تفكيرا حقيقيا •

غير انه سأل نفسه هكذا :

ـ لنفترض ان الولدين اكتشفا هذه الثغرة خلف الصخرة •• فما الذي يجعلنا نعتقد بانهما دخلا فيها ؟••

لذلك فانه التفت الى تلميذه وقال :

ـ لو ان الولدين دخلا في هذا السرداب او النفق او الكهف او سمه ما تشاء •• لكانا سمعا نباح قطاش•

فأجابه داشر :

ـ وما يدرينا ان السرداب عميق جدا في قلب الجبل ، ومحمود وضيفه هناك في مكان بعيد بحيث لم يسمعا نباح قطاش ؟

نبح الكلب غاضبا من جديد ، فانزعج الشيخ سهل وطرده قائلا :

ـ اسكت يا قطاش ؟.. يعني هل من الضروري ان تنبح كل هذا النباح من اجل ارنب ؟.

ثم التفت الى داشر وقال :

ـ يجن جنونه اذا رأى ارنبا ولم يصطده .

فقال داشر :

ـ يا شيخنا ان (قطاش) لا ينبح غاضبا لان الارنب دخل ولم يخرج .. وانما هو غاضب لاننا لم نفهم عليه .انه يريد ان يقول لنا ان (محمود) وعبدالقادر

موجودان هنا في داخل هذا السرداب .

فقال الشيخ سهل معاتبا :

ـ اسمع يا شيخ داشر .. صحيح أنني أثنيت على ذكائك ، ولكنك لن تستطيع ان تقنعني بأنك تفهم كلام الكلب اكثر مني . فهو كلبي وانا افهم عليه جيدا .. ثم .. من المستحيل ان يدخل الولدان في هذا السرداب المجهول لانه ، كما ترى ، مخيف الى حد ان (قطاش) ذاته لم يجرؤ حتى على ان يمد رأسه فيه .

ـ لكن .. اذا كان الكلب لا يجرؤ على دخول السرداب فهذا لا يعني أن صديقينا غير موجودين فيه .

ـ كأنك متأكد من وجودهما هنا .. هل لديك دليل حقيقي ؟

سكت التلميذ النجيب برهة ثم قال :

ـ لا أعرف .. غير ان قلبي يقول لي : يا ولد

يا داشر ، مؤكد ان (محمود) وابن عمته موجودان هنا في هذا السرداب • وربما هنا الان في مكان قريب •

ـ اذن فلماذا لم يسمعا نباح الكلب ؟

ـ لا اعرف ايضا •• ربما كانا نائمين •• او ربما كانا مغميا عليهما •• من يدري ؟!

اطرق الشيخ مفكرا حائرا ، فيما كان (قطاش) ينظر بغضب نحو مدخل السرداب وينبح فيه فيرجع صدى صوته مكبرا من أعماق السرداب المجهول ••

قال الشيخ لكلبه غاضبا : اسكت يا قطاش • الا ترى أنني أفكر ؟!••

ثم التفت الى تلميذه قائلا :

والله انك أوقعتني في حيرة حقيقية •

ـ يا شيخنا صدقني أرجوك •• لو لم يكن الولدان هنا لما أصر قطاش على مواصلة النباح • انظر

اليه كيف يقرب رأسه من فم المغارة وينبح بغضب •

ـ انه غاضب على الارنب الذي دخل ولم يخرج •

ـ بل انه شم رائحة الولدين •• ماذا تنتظر ؟

فقال الشيخ سهل :

ـ على كل حال •• من الافضل ان نحاول دخول هذا السرداب المخيف •• فالمحاولة ، حتى لو كانت محفوفة بالمخاطر ، أفضل من القعود بقلق وحيرة هكذا •• قم يا داشر •• عليك ان تطير الى القرية طيرانا ، فتنقل اليهم الخبر بسرعة ، وتجلب لي حبلا طويلا • اجلب عدة حبال • وهات معك أيضا مصابيح كثيرة •• هيا •• أرني شطارتك يا بطل •

لم يكد الشيخ سهل ينهي كلامه حتى كان داشر قد طار الى القرية طيرانا حقيقيا • غير ان الشيخ الظريف ما لبث أن ناداه بأعلى صوته وطلب منه ان يرجع •

لماذا تراجع الشيخ سهل عن فكرته بهذه السرعة ؟

قال لتلميذه : اسمع يا داشر •• أنا لا أريد ان اصبح اضحوكة في القرية •• وستكون فضيحة كبرى لو تبين في النهاية ان هذا السرداب فارغ •• اذ ماذا سنقول لهم ؟•• هل نقول لهم اننا اعتمدنا على نباح كلب ؟• هل من اللائق ان نجعل عقول رجال القرية جميعا تجري وراء دليل ضعيف كهذا •• صحيح ان (قطاش) كلب دكي جدا ، ولكنني لا أقبل بأن أفضله على عقول رجال القرية •• أصلا حضرة المختار ينتظر وقوع اية هفوة مني حتى يجعلها فضيحة ؟!

فقال داشر :

ــ ومن قال لك يا شيخنا انني سوف أخبر رجال القرية !

ــ اذن ماذا ستفعل ؟

ــ سأخبر رفاقي الاولاد فقط •• أنا واثق أننا قادرون ، لوحدنا ، على انقاذ رفيقينا •

فقال الشيخ الظريف بابتهاج شديد :

ــ رائع •• أنت يا شيخ داشر ولد رائع •• هيا اذهب بسرعة لتخبر رفاقك •• واياك ان يصل الخبر لاي انسان غيرهم •• واجلبوا معكم الحبال والمصابيح.

فقال داشر : وسنجلب معاول أيضا ، وفؤوسا ، و •• وخنجرا • فهذه أشياء ضرورية لنا عندما ندخل السرداب • اذ من يدري ماذا سيعترضنا من عقاب داخل هذا السرداب المجهول ؟

قال ذلك وذهب مسرعا او طار طيرانا حقيقيا حسب تعبير استاذه الظريف، الذي ما لبث ان جلس مع كلبه امام مدخل المغارة منتظرا ومفكرا أيضا • كان يسأل نفسه هكذا :

ــ لنفترض ان الولدين موجودان داخل السرداب فعلا •• فما هي حالتهما الان بعد انقضاء كل هذه الساعات العصيبة ؟

★

- ٥ -

الواقع ان الولدين كانا ـ خلال هذه الساعات الطويلة ـ يواصلان المشي داخل عتمة النفق ، بعزم واصرار .. ولكنهما ، بدلا من ان يكون مشيهما باتجاه المدخل كما كانا يظنان ، كانا يمشيان بالاتجاه المعاكس تماما .. ونحن نعذرهما طبعا . لأن الانسان ، في العتمة الشديدة ، كيف يستطيع أن يعرف دربه أو يحدد الاتجاهات بشكل صحيح ؟!

ولأنهما مشيا بعكس الاتجاه الصحيح فانهما وصلا الآن الى عمق بعيد في داخل الجبل . ولذلك فانهما لم يسمعا صوت نباح قطاش .

أما صوت ضربات المعول في الصخر خلف ذلك

المكان من جدار السرداب المظلم ، فقد نسياه ايضا . لا لانهما صارا بعيدين عنه ، بل لانه ما عاد يهمهما ان يعرفا من هو الذي يحفر هناك . ما عاد يهمهما ان يعرفا أي شيء أو ان يكتشفا أي شيء ولم يعد يهمهما حتى الكنز .. بل ان عبدالقادر قال غاضبا :

ـ حتى لو وجدنا كنزا يتوهج بانوار فانه لن يدهشني ولن يثير فضولي ابدا . انا اريد ان اصل الى مكان ارى فيه نور الشمس .. اريد ان آكل فأنا جوعان جدا .. أريد ان أرتدي اية ثياب فانا اكاد أتجمد من شدة البرد . مالك لا ترد على كلامي يا محمود ؟.. هل تسمعني ؟

أجابه محمود :

ـ أنا يهمني شيء واحد .. هو ان اعرف هل نحن الآن في الليل أم في النهار ؟

فقال عبدالقادر : لقد مشينا كثيرا يا محمود ولم

تصل الى المدخل •• اذن فنحن نمشي في الاتجـــاه المعاكس •• تعال نرجع •

● هذه المرة لن أطيعك •• يجب ان نثابر علـى المشي بهذا الاتجاه •

ـ حتى لو كان سيؤدي بنا الى عمق اكثر في بطن الجبل ؟•• نحن عندما دخلنا لم نقطع كل هذه المسافة•• اذن فنحن الان نمشي في الاتجاه المعاكس ••

● لا انا ولا أنت نستطيع ان نعرف الاتجاهـات في هذه العتمة السوداء •

ربما نمشي في ســرداب فرعي ثالث ونحن لا ندري ••

سأله عبد القادر : والعمل ؟!

أجاب محمود : متى توقفنا هلكنا ـ اذن علينا أن نمشي ونظل نمشي الى أن نجد مخرجا • ويجب عليك

أن تطيعني • فأنا أكبر منك •

ـ ولكن لهجتك لم تكن هكذا في البدايـة ••
كنت أنت الخائف وكنت أنا المتحمس ••

● لقد زال خوفي بعد أن تبين لي أن هذا السرداب المعتم والطويل خال من أية حيوانات مفترسة •• وحين يزول الخوف من قلب الانسان فانه يبدأ في الاعتمـاد على عقله •• ويفكر ••

ـ وأنا ؟

● أنت ماذا ؟

قال عبد القادر لماذا صرت أشعر بالخوف بعد أن كنت في البداية جريئا جدا ؟ أجابـه محمود : أنت يـا عبد القادر لم تكن في البداية جريئا ، بل كنت متحمسا الى حدود التهور •• بسبب حماستك جعلتنا نقـع في هذه الورطة المهلكة • أما الان •• بعـد أن هـدأت أعصابك ، وصرت تفكر بحالتنا فانك صرت ترى هـذا

الظلام المخيف الذي يحيط بنا • همس عبد القادر في أذن محمود قائلا باضطراب شديد : محمود •• انظـ الى فوق •• هل ترى الشيء الذي أراه ؟

رفع محمود رأسه الى فوق ، في الظلام الدامس فلم يصدق عينيه في اللحظات الاولى •• ووجد نفسـ يقـول :

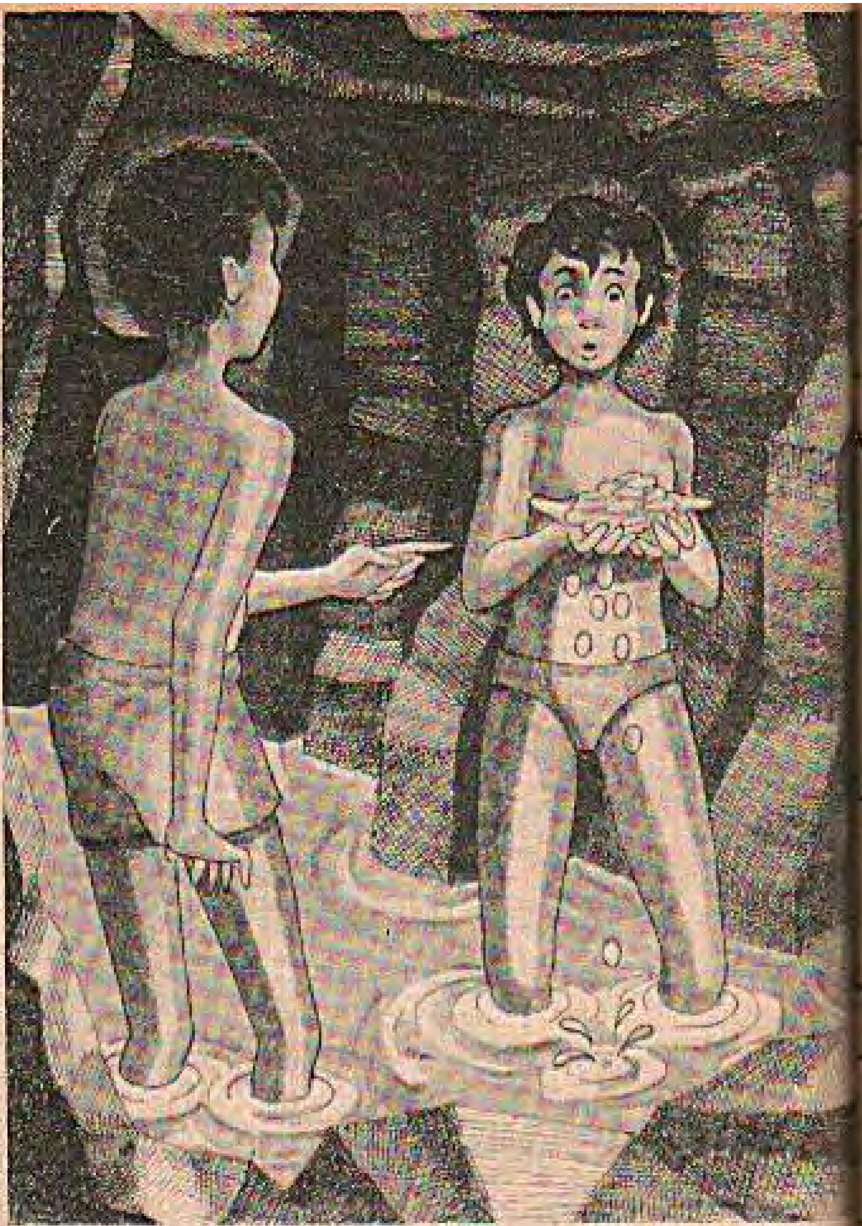
ـ يا الهي •• هذا بصيص نور ضعيف ••

فقال عبد القادر بفرح :

ـ اذن فأنا لم أكن واهمـــا •• رأيت هـ البصيص من الضوء فظننت أن عينيّ تريان وهماً ••

● لا يا عبدالقادر •• هذا بصيص ضوء ضعيـ جدا في السقف •• أكيد •• تعال نتحرك هكذا وهكـ لعللنا نراه بوضوح أكثر ••

مشى الولدان خطوة أو خطوتين ، ورأســا



وجد عبدالقادر نفسه مضطرا لان يرمي كل النقود

يتوجهان الى الاعلى •• فاكتشفا في السقف الصخري شقا يخترق الجبل من هنا الى أعلاه •• انه شق صخري متعرج وعمودي وفي نهايته العليا فتحة صغيرة يرى الانسان منها السماء وضوء النهار واضحا أكيداً•• وان تلك الفتحة الصغيرة والبعيدة في الاعلى تشبه نقطة ضوء ساطعة • كأنها نجمة صغيرة ، لكن ساطعة جدا ، في سماء ليل كله عتمة وظلام ••

ما هــذا ؟

لا أحد يعرف •

ظـل الولـدان ينظران الى أعلى حتى آلمتهما رقبتاهما ، ولكنهما لم يشعرا بالالـــم •• لانهما ـ وقلباهما يخفقان كثيرا بفرح وقلق واضطراب ـ كانا يريدان أن يعرفا ما هــذا ؟

تعتمت النقطة المضيئة العالية •• تعتمت لحظة ثم عادت فأضاءت • وفي الوقت ذاته سمع الولدان صوت

رنين قطعة عملة معدنية تتدحرج نازلة وهي ترتطم
بهذه الصخرة وهذه الصخرة أثناء سقوطها في الجب ..
لكن الصوت لم يكن عاديا وانما كان صوتا ضخما عجيبا
كأن هناك عدد من الطبول التي تقرع في وقت واحد
ولكن لها رنينا موسيقيا مبهجا .

ـ أيكون هذا جب أم فرحان ؟

هكذا سأل محمود نفسه .

وسمع صوت سقوط قطعة العملة المعدنية في
حومة الماء التي يقفان فيها . كانت مياه الحومة تغطي
ساقيهما حتى الركب .. وكانت مياها باردة جدا ولكن
الولدين ، منذ ساعات ، ما عادا يشعران بحرارة أو
برد .. كل حواسهما تعطلت . أما الان فقد سمعا بشكل
واضح وأكيد رنين قطعة العملة المتدحرجة بين صخور
جانبي الجب ، ثم سمعا صوت سقوطها في الماء تحت
أقدامهما ..

حرك محمود قدمه ليتحسس بها قاع حومة الماء
فوجد أنهما لايقفان على أرض من صخر أو رمال ..
وانما هذا الحصا الاملس أو الجص الناعم الذي تحت
أقدامهما ليس حصا ولا بحصا كما كانا يظنان ، بل
هو كمية كبيرة من النقود المعدنية .. بيدر من القروش
والدراهم والدنانير والفلوس والليرات والريالات
النحاسية والفضية والذهبية .

آنذاك هتف محمود بفرح :

ـ هذا جب أم فرحان قطعا ..

فقال عبد القادر :

ـ هذه ثاني مرة أسمعك فيها تذكر هذا الاسم..
من هي أم فرحان ؟

أجابه محمود :

● لا أعرف ..

— اذن ماذا نعرف ؟

● أعرف أننا ، في يوم العيد ، نخرج الى الجبل من الطريق الشرقي السهل ، وفي أعلى الجبل هناك حفرة أو فتحة سوداء بحجم رغيف الخبز ، تتجمع حولها فيرمي كل واحد منا قطعة نقود فيها ، ونضع آذاننا على حافة الثغرة فنسمع أصواتا عجيبة .. كلما رمى أحد قطعة نقوده سمع صوتا عجيبا فيه أنغام لطيفة لكنها عالية ولها رنين هائل يشبه الدوي كأنها ضجة عدة طبول .. مثلما سمعنا قبل قليل .

— وتلك اسمها جب أم فرحان ؟

● نعم .. وأنا وأنت الان واقفان في قعر الجب تماما .. واليوم ، بل الان ، اكتشفت هذا ..

— يعني أنتم لم تكونوا تعرفون مبلغ عمق الجب ؟

● أبدا .. كان من المستحيل على أحد أن ينزل

دلوا في الجب .. لان جدران الجب كما ترى عبارة عن تنوءات صخرية متداخلة ومتعرجة ..

— وهذا الصوت الضخم العجيب الذي سمعناه الآن ؟! .. هل عرفتم سببه ؟

● استاذنا الشيخ سهل يقول أنه الصدى .

— الصدى ؟

● نعم .. فعندما يصطدم الدينار الذهبي بأول صخرة على اليمين يصدر عن صوت الارتطام صدى .. وعندما يصطدم بالصخرة الثانية على اليسار يصدر عنه صدى . وهكذا كلما اصطدم بصخرة أسفل صدر عنه صدى .. وهذه الاصداء تتداخل مع بعضها فيتكون منها ذلك الصوت العالي الضخم الذي يشبه الدوي ، ولكنه مبهج وممتع بأنغام رنينه الموسيقي اللطيف .

— وأنتم ترمون النقود في الجب ، يوم العيد ،

لاجل سماع هذا الصوت العجيب ؟

● في يوم العيد تكون جيوبنا مليئة بالنقود .. والامهات تعتقد أن هذا الصوت المبهج يبعث في النفس الفرح .. والفرح باب الفأل الحسن والحظ الطيب .

ـ لكنك كنت تتحدث عن ليرات من ذهب ودنانير من فضة .

● الكبار أيضا يأتون ، وزوار كثيرون من المناطق المجاورة يأتون ، ويقضون أوقاتا ممتعة هناك قرب جب أم فرحان .. تلك عادة قديمة جدا .. والكبار ـ كما تعرف ـ يبهجهم صوت رنين الذهب والفضة .. والغريب أنهم يشعرون بالسعادة والفرح مثل الصغار وأكثر .

ـ ربما لهذا السبب أطلقوا على المكان اسم جب أم فرحان .

انحنى عبد القادر ومد يديه في الماء حتى موقع قدميه ، ثم أخرج حفنة من قطع النقود .

سأله محمود :

● ماذا تفعل يا عبد القادر ؟

ـ أريد أن ارى الذهب والفضة ، أخشى أن تكون هذه النقود كلها من معدن النحاس الرخيص .

(كيف نسي عبد القادر أنه لن يستطيع ، في هذا الظلام الدامس ، أن يميز الذهب عن النحاس ؟)

ضحك محمود من أعماق قلبه . ولم ينتبه لنفسه . فقد تحول صوت ضحكته الى مايشبه دوي الرعد لكثرة الصدى المتداخل . وفي اللحظة ذاتها سدت فتحة الضوء التي في أعلى الجب فساد الظلام الكامل ، فرجعت حالة الخوف . لكن ذلك لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما عادت فتحة الضوء العالية منيرة مثل السابق ، فهدأت حالة الولدين ، وقال عبد القادر هامسا :

ـ ليتني أستطيع أن أرى نوع معدن هذه النقود التي تملأ كفي •• ترى هل هي من الذهب ؟

● ان لم تكن كلها من الذهب فان فيها نقودا ذهبية وفضية كثيرة •

فقال عبد القادر بفرح ، ولكن بهمس :

ـ يعني كنز •• أرأيت أننا اكتشفنا كنزا •

● هذا شيء مفرح فعلا •

ـ أنا كنت متأكدا من أننا سنعثر على كنز •• قلبي كان يؤكد لي بأننا لن نخرج من هذه المغارة الا بكنز •

محمود : هذا اذا خرجنا من هذه المغارة •

عبد القادر : ماذا تقصد يامحمود ؟

محمود : كلامي واضح : صحيح أن هذا الكنز هو كنز حقيقي حسب تعبير أستاذنا الشيخ سهل

الذي يحلم بأن يعمر به مدرسة : لكن المشكلة هي كيف نخرج من هنا ؟ فالمهم قبل الكنز هو أن ننجو بأرواحنا يا ابن عمتي العزيز •

عبد القادر : يعني •• أليس من المؤسف أن لانستطيع حمل هذه الكمية الكبيرة من النقود معنا ؟

ضحك محمود غضبا منه ، هذه المرة أيضا •• فيالغرابة تفكير ابن عمته !

لكن (محمود) عندما ضحك بصوت عال دون أن ينتبه حدث ، هذه المرة أيضا ، ما حدث في المرة السابقة اذ سدت فتحة الضوء التي في أعلى الجب لحظات قليلة ثم عادت فزالت العتمة وعاد بصيص النور من أعلى ••

قال محمود بلهجة آمر :

● بعد الآن لن نتحدث الا بموضوع واحد •• وهو : كيف نخرج من هنا •• تعال نحاول تسلق

صخور جدار الجب .. هيا .. ساعدني ..

ـ كيف ؟

● نصعد .. ضع رجلك على هذه الصخرة .. وضع الرجل الثانية على الصخرة المقابلة وثابر في التسلق والصعود .. اصعد قبلي .. لاتخف .. فمن حسن الحظ أن هذا الشق الصخري يشبه جدارين متقابلين تماما .. هيا يا عبد القادر .

تردد عبد القادر قليلا ،ثم وجد نفسه مضطرا لان يرمي كل النقود من يده آسفا ، وبدأ محاولة التسلق الصعبة .

تقولون انها عملية (صعبة) فقط ؟ .. هل تكفي هذه الصفة .

هل ان تساق هذا الشق الصخري العالي جدا ، وفي هذه العتمة ، هو عمل (صعب) فقط ؟ أم أنه عمل مستحيل ؟

وماذا يحدث اذا انزلقت القدم أثناء الصعود الخطر ؟

وهل ان هذه الصخور الملساء والرطبة تمكن الانسان من أن يتشبث بها بعد أن يصل الى ارتفاع عال ؟

انا مضطرون لان نمنح هذين الولدين مهلة من الوقت حتى نرى نتائج محاولاتهما في الصعود من البئر العميق ومعرفة الاجوبة الصحيحة على هذه الاسئلة المقلقة . .اذن فلنستفد من هذا الوقت في معرفة ما جرى مع الآخرين ـ مثلا : ماذا جرى مع الشيخ سهل الذي ينتظر ، على أحر من الجمر ، عند مدخل السرداب ؟

★

- ٦ -

نفذ الولد داشر وصية أستاذه بدقة وأمانة ، فلم يبح بالسر الا لرفاقه الاولاد ، وأخبرهم بأن أستاذهم الشيخ سيغامر بحياته فيدخل في السرداب لوحده (وأن علينا أن نساعده فنجهزه بالحبال والمصابيح ومعولا وفأسا ثم ننتظره عند مدخل السرداب) • أخبرهم داشر بذلك بعد أن شرح لهم قصة اكتشاف السرداب من أولها الى آخرها ••

وبينما كان الاولاد يجمعون الاغراض المطلوبة كانت القرية كلها قد سمعت بالخبر • فهب الجميع مسرعين نحو الشيخ سهل • هذا يحمل حبلا ، وهذا يحمل مصباح نفط ، وهذه امرأة تحمل معولا ، وهذا

رجل لم يجد عنده حبلا فجلب رسن حمارته • وهذا ولد أخذ معه مصباحه اليدوي الذي يعمل بالبطارية • وكان الجميع ، في حشدهم العجيب ، يمشون مسرعين ، وكنت ترى في المقدمة أبا محمود المتلهف لمعرفة مصير ابنه وابن اخته ، والمختار ، والناطور ، والقصاب ، ومصلح مواقد النفط ، والشيخ عبد الحفيظ امام مسجد القرية وخطيب الجمعة فيها •

وفيما كان الجميع يمشون مسرعين ملهوفين ، فان أبا محمود ما أن لمح خطيب الجمعة بعمامته البيضاء حتى تذكر شيئا متلقا جدا جعله يقف في مكانه •

ماذا تذكر أبو محمود ؟

تذكر أن اليوم هو يوم الجمعة •

أي أن زيارة عبد القادر عند خاله تنتهي اليوم •• وبعد ساعة ، وربما بعد أقل من ساعة ، يأتي أبو عبد القادر من المدينة ليصطحب معه ابنه بعد أن انتهى

أسبوع الزيارة السعيدة • •فماذا سنقول له اذا وصل الآن وسألنا : أين عبد القادر ؟

سنقول له : انه مع محمود •

فيسألنا : وأين عبد القادر ومحمود ؟

هل سنجيبه قائلين : لانعرف ؟

وهكذا صار أبو محمود في نهاية الموكب ، مما اضطر المختار لان يرجع اليه حتى يعرف سبب تخلفه •

أما الموكب ذاته فقد واصل مسيرته المخيفة •• نقول (مخيفة) لان الشيخ سهل حين رأي كل أولئك الناس من بعيد ، وهم مقبلون نحوه ، ظن ان سكان القرية جميعا يهربون دفعة واحدة من خطر وباء عجيب•• والا فلماذا يهاجرون من بيوتهم هكذا : نساء ورجالا •• شيوخا وشبانا وأطفالا !!

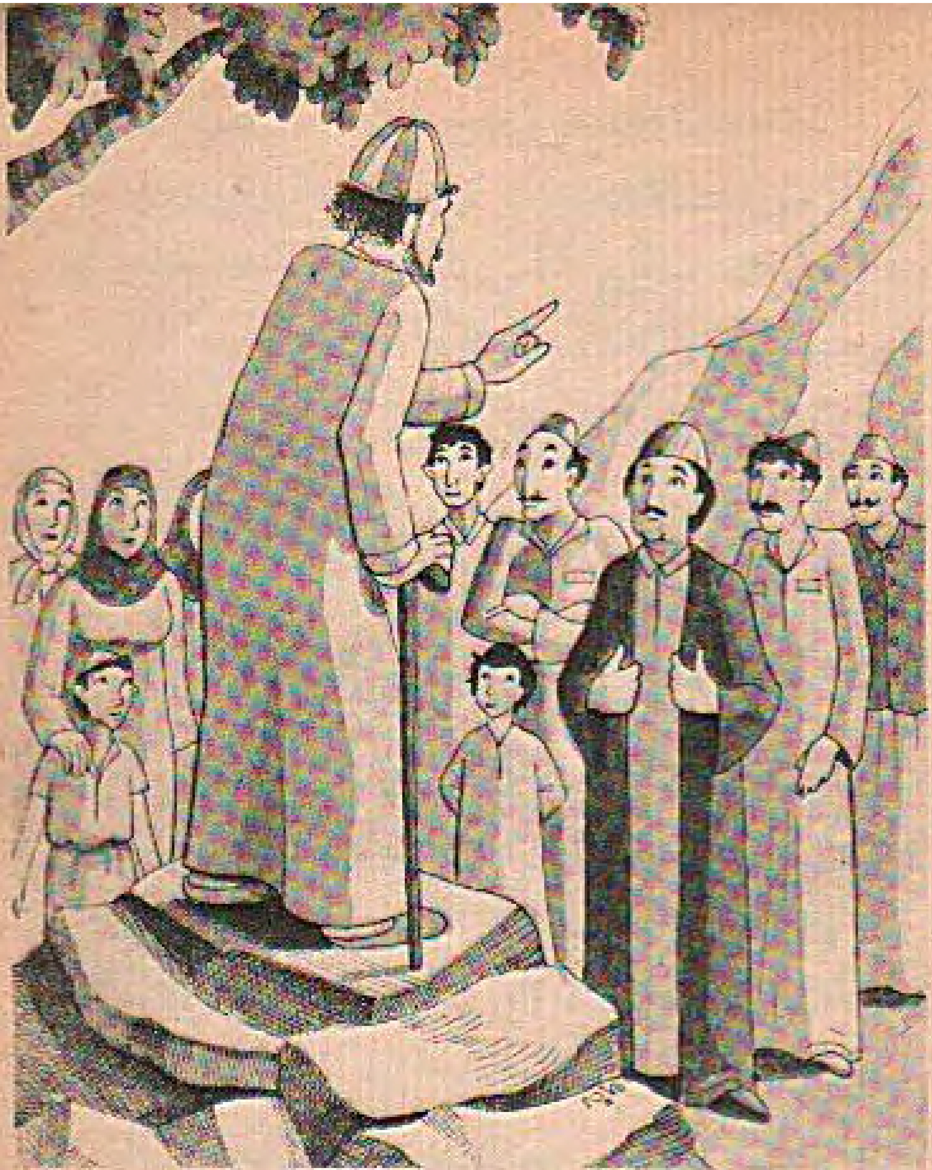
لذلك قرر الشيخ سهل أن يضع حدا حاسما لهذه

(المهزلة الحقيقية) حسب تعبيره فعندما وصلوا اليه وقف فيهم خطيبا •. (وقف فوق الصخرة الشهيرة بعد أن أخذ من يد المختار عكازته فاستند اليها) •

وكان خطابه موفقا فقد أثنى على الجميع ، وشكر فيهم هذه الشهامة والنخوة والغيرة والتعاطف الاخوي الحقيقي ، ثم أصدر أمره بأن تعود النساء جميعا الى القرية ، في الحال ، وأن يذهب معهن الاطفال أيضا ، والاولاد ، والشيوخ •• ثم قال :

ـ أما الرجال فانني أريد منهم سبعة شجعان فقط •• أريد شبانا قلوبهم لاتعرف الخوف أبدا •• يعني ـ بصريح العبارة ـ أريد أبطالا حقيقيين ، لانهم سيدخلون في مغارة مجهولة لا نعرف ماذا يوجد فيها •• ضباع •• ذئاب •• أفاع •• لانعرف !! هل يوجد في هذا السرداب مزالق خطرة وحفر مهلكة ؟•• لانعرف !!

فصرخ المختار أبو رضوان معترضا :



عندما وصلوا وقف الشيخ سهل فيهم خطيبا

ـ ما هذا الكلام ياشيخ سهل ؟!•• هات العكاز وانزل •• كنت أظنك تعرف كيف تتحدث •• يارجل •• بدلا من تشـــجيع الناس تثير الرعـب والخوف في قلوبهم ؟! هات العكاز وانزل •

فقال الشيخ سهل متسائلا باستغراب :

ـ يعني أنا أخطأت لانني بينت الحقيقة سلفا ؟!•• عجيب !!

ثم عاد الى لهجته الخطابية قائلا :

ـ أيها الناس •• يا أبناء قرية المحظوظة الاعزاء •• اسمعوا وعوا •• وافهموا الكلام بالعربي الفصـــيح : اننا لانضمن سلامة حياة أي شخص يتطوع لدخـــول هذا السرداب • لذلك فان المتطوعين سيكونون أبطالا حقيقيين ••

فهتف الناطور حســـين الاعرج من بين الناس المحتشدين :

ــ وأنت .. ماذا ستفعل ؟

فأجابه الشيخ سهل :

ــ عجيب .. ألم أخبركم بأنني سأدخل في المقدمة على رأس المتطوعين ؟!

قالوا :

ــ لا .. انك لم تخبرنا بذلك .

فقال :

ــ لا تؤاخذوني .. يبدو أنني نسيت ..

فانتشرت موجة من الضحك أزالت عن القلوب ذلك الكابوس .. وتقدم سبعة رجال ، بينهم أبو محمود طبعا ، فنفذوا أوامر الشيخ سهل الذي ربط بدايةالحبل حول خصره وقال لهم :

ــ بعد كل عشرة أمتار يربط أحدكم الحبل حول خصره ... وليحمل كل واحد مصباحا ، ومعولا أو

مطرقة أو فأسا .. ومن كان معه خنجر فلا مانع .. أما المسدسات أو الاسلحة النارية فممنوعة منعا باتا حتى لانقتل بعضنا خطأ في الظلام .. هيا بنا يارجال على بركة الله .

وحين هم الشيخ سهل بدخول المغارة ، على رأس المتطوعين الشجعان ، اضطر للتوقف والتراجع لانه سمع صوت المختار أبي رضوان صارخا :

ــ توقفوا .. توقفوا .. انني أمنعكم من التهور في هذه المغامرة الجنونية .

كان الجميع ينظرون الى مختار قريتهم الجليل ، وقد وقف فوق الصخرة التي صار اسمها صخرة الخطابة الان ، وهو مستند بيده على عكازه .. ويقول :

ــ أيها الناس .. ماذا جرى لعقولكم ؟ أنا مختاركم الذي تثقون به وتحبونه ويحبكم .. أريد أن أسألكم : هل لدينا أي دليل على أن الولدين المفقودين

موجودان داخل هذا النفق ؟! .. أجيبوا .. نعم أم لا ـ أنا أتبرع بالجواب .. الجواب هو أنه ليس لدينا أي دليل .. اذن ، فاذا كنا الان معرضين لخطر ضياع ولدين اثنين لانعرف أين هما ، فهل من العقل والمنطق أن نعرض للموت الاكيد عشرة رجال أيضا ؟ .. ماذا جرى لعقولكم ؟ ..

فنظر الجميع الى بعضهم حائرين قلقين ، لايعرفون ماذا يفعلون .

وكان أبو محمود أشد الجميع قلقا .. فكل دقيقة تمر من الوقت هي هدر للزمن الثمين ، لان الشمس توشك على المغيب ، وما أصعب أن يقوموا بعمليات البحث في الليل .

وكان أبو محمود يشعر بالحرج الشديد أيضا .. لانه لايستطيع أن يؤيد المختار فيضيع فرصة البحث عن ولده الضائع .. ولا يستطيع أن يؤيد الشيخ سهل

حتى لايتهم بأنه يورط أناسا آخرين لان الشخص الضائع هو ولده .. اذن فما هو الحل .

آنذاك قال بصوت عال : الحل هو أن نأخذ رأي الاكثرية ..

فوافق كبير المؤيدين (أي الشيخ سهل) وكبير المعارضين (أي المختار) على هذه الفكرة .. وهتفا معا بصوت واحد : تحيا الديمقراطية .

وتم الاتفاق على أن يكون التصويت بطريقة بسيطة جدا : فالذين يؤيدون القيام بالمغامرة يقفون على يمين الصخرة .. والذين يعارضونها يقفون على يسارها ..

ـ هيا يا أخوان .. بسرعة .. فالشمس توشك أن تغيب .

وسرعان ما وقف الشيخ سهل ـ والحبل مربوط حول خصره ـ على يمين الصخرة ، ولكن لم يتجمع

حوله الا الاولاد ، وأبو محمود ، والرجال الستة الآخرون المربوطون بالحبل •• ولم يقف معهم من النساء الازوجات هؤلاء فقط ، مع أنه ــ بموجب مبادىء الديمقراطية ــ يحق للزوجة أن يكون لها رأي مخالف لرأي زوجها • فالآراء تنبع من تفكير الانسان ذاته • بدليل أن الولد رضوان ، وهو ابن المختار ذاته كما نعلم ، وقف مع رفاقه الاولاد في صف مؤيدي البحث عن رفيقهم الضائع ، مع أن أباه المختار هو زعيم فكرة المعارضة •

والواقع أن المختار كان مسرورا لان الاكثرية الساحقة من الاهالي وقفت في صفه ، ولكنه في قرارة نفسه منزعجا لان ابنه وقف هناك في الصف • ولكن ماذا يفعل لمبادىء الديمقراطية التي ترغمه على أن يخفي انزعاجه ويحترم حرية رأي الآخرين ؟ •• لذلك فانه وجه هذا السؤال الى الولد رضوان قائلا :

ــ أخبرنا يارضوان عن السبب العقلي والمبرر

الفكري الذي جعلك تتخذ قرارك ضدنا •

فقال رضوان :

ــ سأخبركم بشيء آخر •• وهو أنه •• لو أنكم تركتمونا نتصرف نحن الاولاد حسب خطتنا لكنا الآن قد دخلنا وخرجنا وأخبرناكم بالنتائج ••

فقال المختار :

ــ لم يبق علينا الا أن نترك رأي الكبار ونعمل برأي الصغار •• لكن فلنحمد الله على أن الديمقراطية خلصتنا من هذه الورطة والمغامرة ••

ثم التفت الى الشيخ عبد الحفيظ امام المسجد وخطيب الجمعة ، وقال :

ــ يا شيخ عبد الحفيظ •• أرجوك أن تعلن نتيجة التصويت رسميا •• مع أن كل شيء واضح •• فعددنا اكثر من عددهم بعشرات المرات •

فوقف الشيخ عبد الحفيظ فوق صخرة الخطابة ، من غير أن يستعين بعكاز المختار ، لانه قوي البنية متين العضلات ، فبدأ خطابه بالبسملة (أي أنه قال : بسم الله الرحمن الرحيم) ثم حوقل مرتين (أي قال : لاحول ولا قوة الا بالله) ثم حمده ثلاث مرات (أي قال : الحمد لله) ثلاث مرات .. ثم .. ثم سكت ..

لماذا سكت الشيخ عبد الحفيظ ؟

لان فارسا مقبلا نحوهم من بعيد ، يعدو بفرسه مسرعا ويثير سيلا من الغبار وراءه .. وكان يصرخ من بعيد : (يا أهل المحظوظة .. يا أهل المحظوظة) ويرفع يده الى أعلى ملوحا بها .

فالتفتت اليه جميع الانظار .. وكان الجميع يقولون في قلوبهم : « يارب .. اجعله يبشرنا بأنه وجد الولدين » ..

لكن من هو ذلك الفارس المقبل نحونا مسرعا

اتا مضطربا ؟

انه حميدان ، وهو شاب من أبناء قرية المبعوجة المجاورة لقريتنا .

ـ ما وراءك يا حميدان ؟! بشر .. هل وجدت الولدين ؟

فقال حميدان عندما وصل اليهم :

ـ أي ولدين ؟

فسأله أبو محمود :

ـ اذن لماذا جئت الينا مسرعا وبهذه اللهفة ؟

أجابه حميدان وهو مايزال يلهث :

ـ جئت لاحذركم من خطر يتهدد قريتكم ..

فسأله الجميع بصوت واحد وبلهفة شديدة :

ـ خطر ؟؟

قال حميدان :

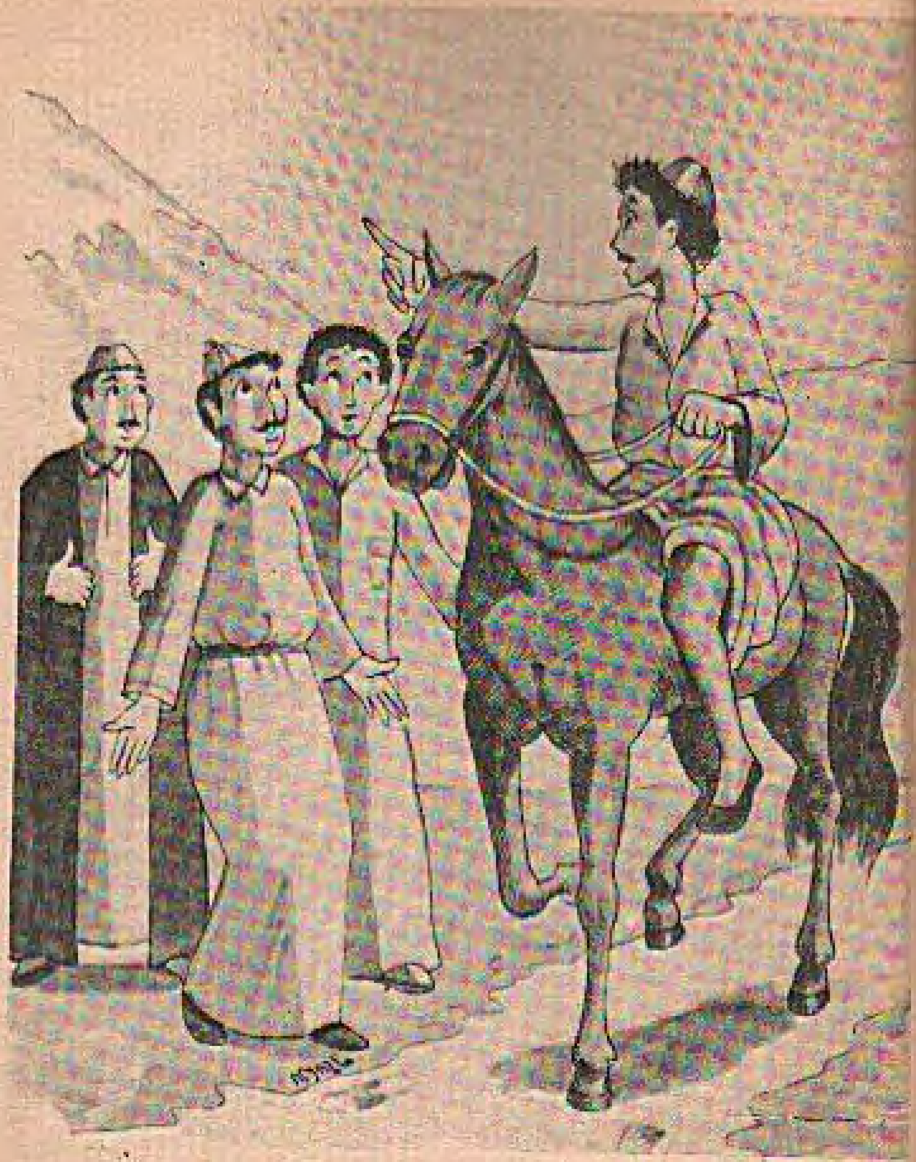
ــ أنتم جيراننا الاعزاء على قلوبنا .. وطول عمرنا في المبعوجة والمحظوظة مثل أسرة واحدة . لذلك فان من واجبي أن أخبركم بالخطر الداهم الذي اكتشفته اليوم هنا ، قرب قريتكم .

ــ أيــن ؟

أشار حميدان بيده نحو أعلى سفح الجبل وقال :

ــ هناك عند جب أم فرحان .. فقد كنت أنـا وبعض رفاقي نقضي أجمل الاوقـات اليوم بالنزهـة هناك . وقمت فرميت في الجب درهمـا ، على عادتنا القديمة أبا عن جد ؛ وجلست أصغي لصوت رنين الدرهم المتدحرج نازلا بين الصخور .. ولكنني .. ولكنني .. ولكنني .

ــ ولكنك ماذا ياحميدان ؟ .. مالوجهك صـار أصفر هكذا ؟



كان حميدان يلوح بيده وهو مقبل نحوهم .

قال حيدان :

ـ أخشى أن لاتصدقوني •• لان الذي سمعته من أعماق الجب بعد ذلك هو شيء لايصدقه العقل •• لقد سمعت ضحكة ولد ••

فسأله الجميع مبهوتين : ضحكة ولد ؟!

ـ أما قلت لكم انكم لن تصدقوني ؟ •• أنا شخصيا لم أصدق ما سمعته أذني •• لذلك مددت رأسي في فتحة الجب وأصغيت باتنباه ، فانقطع صوت الضحكة •

فقال الحاضرون المندهشون : عجيب •• غير معقول •• عمرنا ماسمعنا أصوات ضحكات في ذلك الجب •

تقدم الشيخ سهل من الشاب حميدان ، الذي نزل عن فرسه ،وسـأله :

ـ هل أنت متأكد من أنها كانت ضحكة ولد ؟

ـ الحقيقة أنني لم أكن متأكد من ذلك في المرة الاولـى .

ـ يعني هناك مرة ثانية ؟

ـ طبعا .. لانني بعد أن انتابني الشك في ماحدث معي ، وأخبرت أصدقائي ، قررنا أن نعيد التجربة مرة ثانية .. فرميت بدرهم آخر ، وقعدنا جميعا نصـغي باتباه شديد .

ـ ايه .. وماذا سمعتم ؟

ـ كلنا سمعنا صوت ضحكة ذلك الولد .

فسأله المختار ، الذي كان أشد الجميع استغرابا :

ـ وهل كررتم التجربة مرة ثالثة ؟

ـ لا ياعمي المختار .

ـ لمـاذا ؟

ـ لاننا .. لاننا ..

كان هذا الشاب حميدان يريد أن يقول : (لاننا خفنا خوفا شديدا .. فهربنا وابتعدنا عن هـذا الجب المفزع . ابتعدنا بسـرعة وتركنا متاعنا وطعامنا وكل شيء) . لكن حميدان خجل أن يقول ذلك علنا والمكان مليء بالصبايا والفتيان . لذلك همس بهذا السر في أذن المختار همسا .

هز المختار رأسه بحركة معناها : (معكـم كل الحق) .. ثم قال :

ـ أعجب مافي هذه القصة المثيرة هو .. لا أدري ماهو .. وما عدت أعرف ماذا أقول ..

آنذاك صرخ داشر :

ــ هذه ضحكة محمود •• انه موجــود في قعر الجب حتما •• وبواسطة أمواج الصدى وصل صوت ضحكته لفوق ••

فتساءل حميدان :

ــ يعني هو ولد حقيقي ؟

فأجابه أبو محمود : اذن ماذا كنت تظنه ؟ انــه ابني محمود ••

قال حميدان :

ــ وما الذي أوصله الى هناك ؟

أشار أبو محمود الى فتحة السرداب وقال :

ــ دخل من هنا هو وابن عمته الاصغر منه سنا •• ثم ضاعا وتاها في الظلام •• هذا رأيي القطعي •• وأنا سأدخل لاجلب ولدي ــ فمن شاء أن يساعدني فهــو مشكور ••

قال حميدان بحماسة :

ــ أنا أول المتطوعين •• سأدخل معك ••

وصرخ المختار بأعلى صوته :

ــ بل أنا الذي سيدخل قبلكما ••

فســـادت حالة من الرضى والارتياح ، وركب الناطور فرس حميدان وطار بها مسرعا الى القريـــة ليطمئن المسكنية أم محمود بأنهم عرفوا مكان الولدين، وأنهم بدأوا العمل فعلا لانقاذهما ••

لكن هل سيخرج الجميع سالمين ؟

★

الفصل الاخير

كل المحاولات التي بذلهـــا محمود وعبد القادر للصعود من الجب تسلقا فشلت ••

كانت حواف الصـــخور ، على الجانبين ، حـادة جارحه كأنها حد السكين •• بينما كان سطح الصخور أملس ناعما وعليه طبقة من الرطوبة تجعل اليد تزلـق عليه ، وكأنه سطح شيء مغطى بالزيت •• وبالاضافـة الى ذلك فان الفسحة مابين جداري هذا الشق العمودي المعتم كانت تضيق أحيانا حتى يكاد يصعب المرور فيها ، وكانت تتسع أحيانا الى درجة أن عبدالقادر عندما وضع رجله اليمنى على صخور هذه الجهة فان قدمـه اليسرى لم تجد صخرة مقابلة رغم أنه مد ساقه اليســرى حتى

النهايــة ••

ولقد بذل الولدان محاولات عديدة •• لكنهما لم ييأسا •• بل انهما في النهاية ، عندما اتفقا علـى أن الصعود مستحيل ، قررا أن يمشيا مع تيار الماء الذي يجري تحت أقدامهما •• وبدأ المشي فعلا •• لكنهمـا مشيا صامتين • وكانا حزينين • رغم أن في يد محمود حفنة من النقود المعدنية • وفي يد عبد القادر حفنة من النقود التي قد تكون كلها من الذهب ••

لكن ما فائدة كل نقود الدنيا اذا لـم نخرج من هنـا ؟

هكذا كان كل واحد منهما يسأل نفسه صـامتا حزينا ، وهما يمشيان ببطء وحذر شديدين يمشـيان في أعمق نقطة بهذا السرداب من غير أن يعرفا أين هما بسبب العتمة الكاملة ••

بينما هناك ، عند مدخل السرداب ، توجد مصابيح

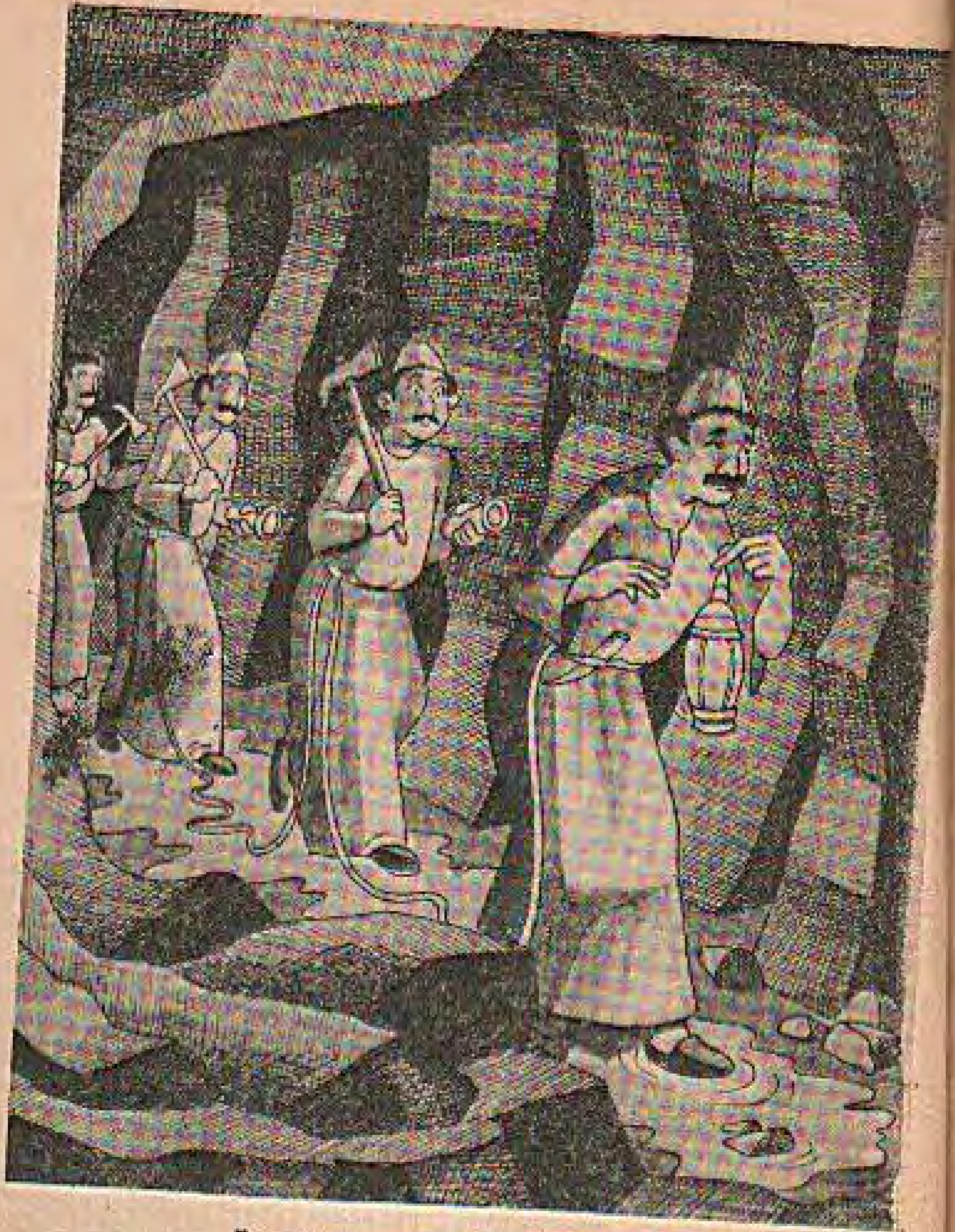
كثيرة ..

فأبو محمود ، وحميدان ، والمختار ، والشيخ سهل ، والرجال الشجعان الآخرون الذين دخلوا السرداب ، كان كل منهم يحمل مصباحا مضيئا . ولم يلاحظ أي منهم أي تغير في توهج نور مصباحه .. وهذا شيء مفرح . لانه يعني أن نسبة غاز الاوكسيجين في هواء السرداب هي نسبة طبيعية . والاوكسيجين يعني المياه .. وهكذا شع في النفوس بصيص أمل بأن الولدين يتنفسان هواء طبيعيا ولا خطر عليهما من هذه الناحية ..

كان الرجال المنقذون يفكرون بذلك وهم يمشون .. وكانوا يمشون بعزم وثقة وبسرعة مقبولة ..

وكانوا متصلين مع بعضهم بواسطة الحبل المعقود على خواصرهم ..

وحين انتهى الحبل الاول أسرع أهل القرية



كانوا يمشون بعزم وثقة

المنتظرون عند مدخل السرداب فربطوا حبلاً ثانيا وقالوا :

ـ اذن كم هو طويل هذا السرداب ؟

وكانت أنظارهم جميعا منصبة على مدخل السرداب كأنهم متلهفون لان يخرج من هناك أي خبر .. وكانوا يشعرون بأن الوقت ثقيل جدا وبطيء جدا .. ولكنهم ، كلما مر وقت أطول ، كانوا يشعرون بقلق اكثر ، ويشعرون أيضا بأمل أكبر ..

فالقلق .. لانه لوكان الولدان موجودين اذن لسمعنا بالخبر ...

والامل .. لانه لوكان هناك أي خطر لكان المنقذون قد رجعوا ...

وكان الاتفاق أن تأتي الاخبار بواسطة النقل الشفوي من الشخص الاول الذي في أعمق نقطة ، الى

الرجل الذي يليه ، الى الثالث ، .. وهكذا .. حتى يصل الخبر المنتظر الى داشر الذي وقف عند مدخل السرداب ..

سحب داشر رأسه من مدخل السرداب والتفت نحو أهل القرية بوجه ينضح بالبشر والفرح وصرخ :

ـ وجد وهما سالمين .. يارضوان اذهب بسرعة وأخبر بذلك أم محمود ..

فارتفعت زغايد النساء .. وارتفعت الاكف بالشكر لله تعالى .... وعمت الجميع حالة من الفرح والابتهاج والارتياح ..

غير أن الولد داشر مالبث أن صاح بأعلى صوته خلف رضوان الذي ركض مسرعا باتجاه القرية ..

ـ يا رضوان .. هاتوا لنا قفافا وسلالا كثيرة .

فنظر الجميع الى بعضهم نظرات ملؤها الدهشة

والاستغراب .. فالقفاف تستعمل عادة لنقل الحنطة والشعير والعدس والفول .. والسلال نستعملها لنقل العنب والتين .. فهل وجدوا في داخل السرداب حنطة وشعيرا وعنبا وتينا .

صرخ داشر بفرح لا يوصف .

ـ كنز .. لقد وجدوا كنزا .

فهتف الشيخ عبد الحفيظ بأعلى صوته : الله أكبر ..

وزغردت النساء زغاريد اجمل من المرة الاولى .. فالحمد لله رب العالمين .

وقالت احدى النساء بفرح واستبشار :

ـ أرأيتم أن قريتنا المحظوظة هي محظوظة فعلا ؟!

فقالت لها سيدة اخرى ناصحة :

ـ لا تتعجلي يا أم عدنان .. اصبري حتى نعرف ماهي حقيقة هذا الكنز .

ـ وهل هذا كلام ؟! .. ما داموا يطلبون قفافا وسلالا كثيرة اذن فالكنز الذي وجدوه هو عبارة عن بيدر من الذهب حتما .

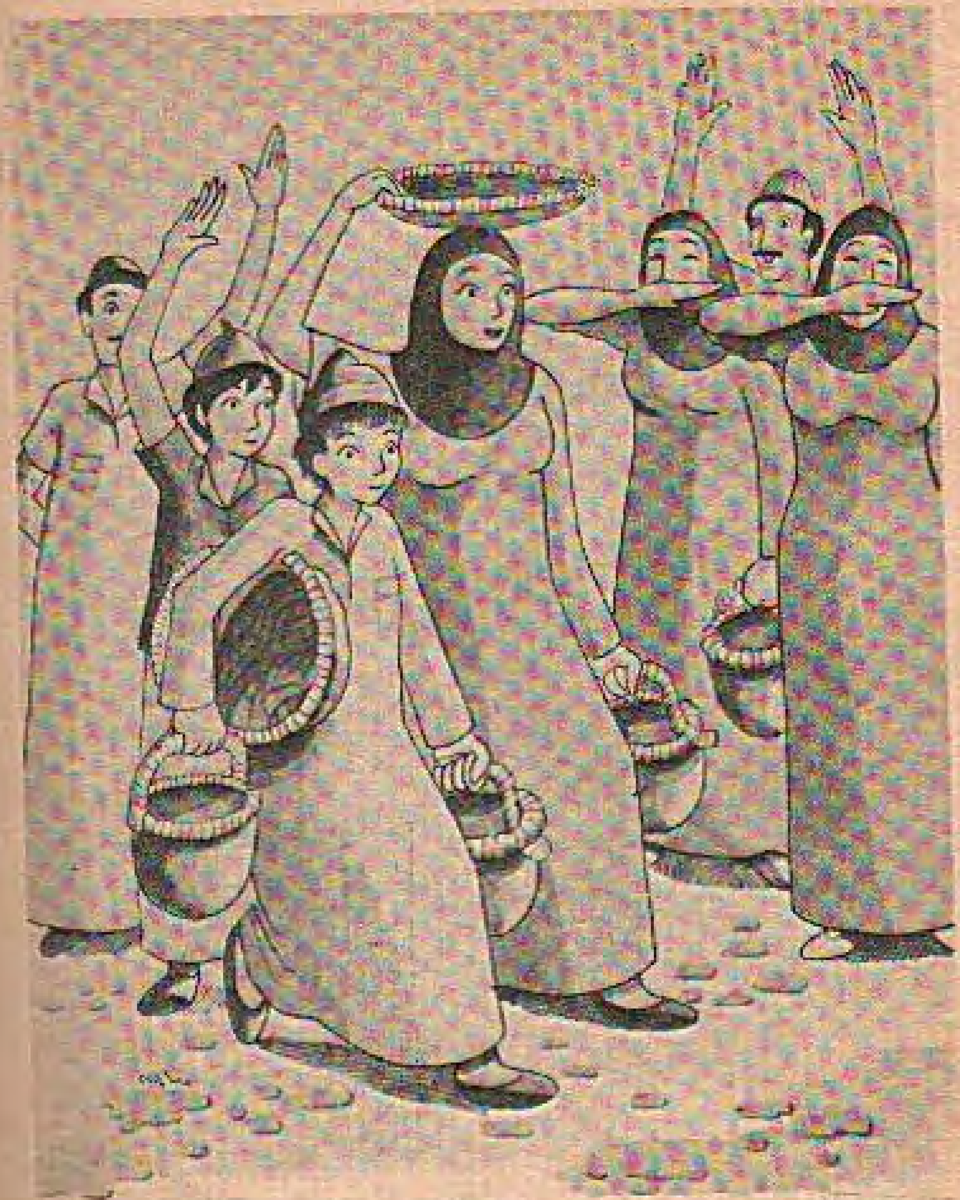
وصارت الدنيا كلها ـ في تلك اللحظات الجميلة ـ بلون الذهب .. حتى لكأن الشمس ، وهي تميل الى المغيب ، كانت تبتسم وتغرق الدنيا بأشعة من لون الذهب .. وهؤلاء الناس الذين لايتحدثون الا عن تلال الذهب ويحلمون بالايام الجميلة التالية استقبلوا الولدين استقبال الابطال عندما خرجا من السرداب .

أول كلمة قالها عبد القادر عندما رأى الدنيا :

اعطوني ثيابي ..

وأول كلمة قالها محمود عندما لم تصدق عيناه أنه يرى الدنيا من جديد : أنا جائع جدا .

أما نحن الذين وقفنا هناك لنصف ماحدث بعد ذلك فان عيوننا اغرورقت بالدموع ، دموع التأثر



ـ وزغردت النساء بعد ان شاعت حكاية الكنز

والمواقف العاطفية الصادقة . لذلك فاننا نعتذر للسادة القراء عن عجزنا على وصف ماجرى . ونرجوهم أن يتخيلوا بأنفسهم ماحدث بعد ذلك ، خصوصا عندما وصلت أم محمود واحتضنت ابنها . وكان معها الضيف أبو عبد القادر ، القادم من المدينة ، الذي ما أن رآه ابنه حتى صاح بأعلى صوته :

ـ أبي ـ لقد اكتشفت كنزا .

★

اذن فنحن نرجو السادة القراء أن يعفونا من وصف هذه المواقف العاطفية المؤثرة . لاننا مشغولون بدموع الفرح والتأثر والابتهاج .

كما نرجوهم أن لايسألونا عن سر صوت ضربات المعول المخيفة التي سمعها الولدان في قلب السرداب .. لاننا في الواقع لانعرف سر ذلك أبدا .. الا اذا كان ذلك الصوت ليس صوت ضربات معول في صخور

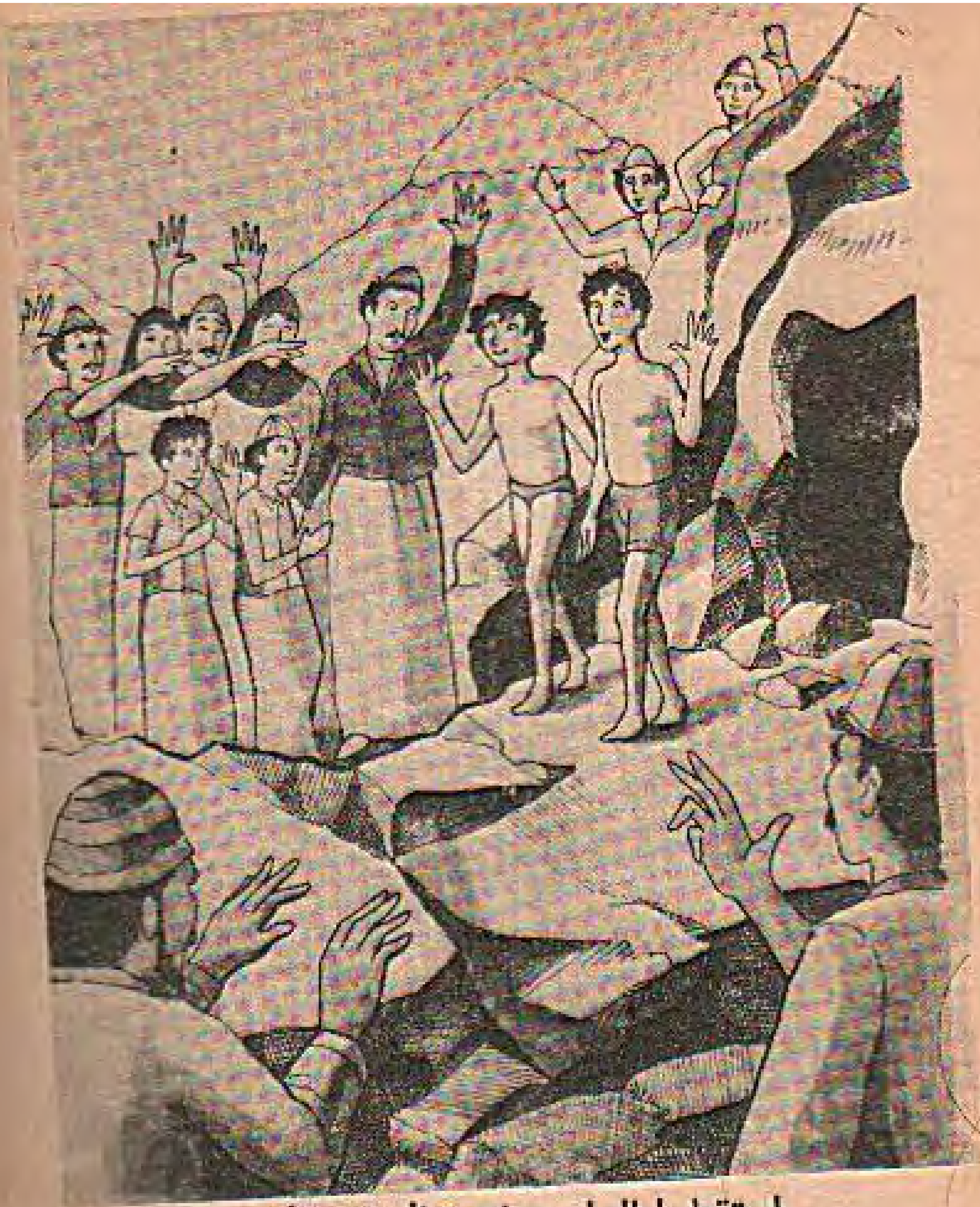
خلف الجدار وانما هو ـ ربما ـ صوت دقات قلبي الولدين عندما كانا في ذلك الموقف المليء بالخوف والقلق والترقب •

ما رجوهم ـ ثالثا ـ أن لايزعلوا اذا أخبرناهم بأن الكنز كان خاليا من أية عملة ذهبية على الاطلاق •• وانما كان الكنز ملء ثلاث قفاف كبيرة من قطع العملة النحاسية الرخيصة ، وبينها عدد قليل جدا من قطع العملة الفضية ••

ـ اذن فكيف كان الناس يتباهون بالقول انهم ألقوا في الجب دنانير ذهبية ؟

ـ هذا لان ظاهرة التباهي ، وهي ظاهرة غير محمودة ، تجعل بعض الناس يكذبون •

وهكذا فان الشيخ سهل الذي كان يأمل بأن يبني بثمن هذا الكنز مدرسة لاطفال القرية ، جلس حزينا •• لان هذه النقود نحاسية ، والنحاس رخيص •• غير أن



استقبلوا الولدين استقبال الابطال

أبا عبد القادر ، وهو انسان مثقف من أبناء المدينة ــ ولذلك فانه موظف بدائرة مراقبة المطبوعات ــ ربت على كتف الشيخ سهل بلطف وقال له :

ــ لا تحزن أيها الشيخ الفاضل ولا تزعل • فان هذه النقود النحاسية قد تباع بأسعار أغلى من سعر الذهب •• لان بينها نقودا قديمة جدا ونادرة ، وهذه يشتريها هواة جمع التحف الاثرية بأسعار عالية ، كما أن المتاحف تدفع مبالغ طائلة للحصول على مثل هذه العملات النادرة التي تشكل مصدر معلومات هامة عن فترات من التاريخ القديم •

فقال الشيخ سهل بفرح :

ــ اذن هناك أمل بأن نبني المدرسة ؟!

وصاح بأعلى صوته :

ــ أيها الناس •• يا أبناء المحظوظة ــ أقيموا

الافراح والليالي الملاح .. وهيا بنا لنسهر سهرة حقيقية حتى الصباح ..

فسار الجميع ضاحكين مسرورين •

ومن حسن الحظ أن الشيخ سهل ذهب مع الجميع ، الراجعين الى القرية ، من غير أن ينتبه الى أن كلبه قطاش ظل لوحده واقفا أمام باب السرداب ينبح بهمة ونشاط ..

لان الشيخ سهل ، لو لاحظ ذلك ، لبحث عن الولد داشر حتى يجده ويقول له :

ـ أرأيت ياداشر ؟! ان (قطاش) كان ينبح غاضبا على الارنب الذي فلت منه واختفى في السرداب .. ولم يكن يعرف شيئا عن الولدين ..

أو ربما كان قال له :

ـ أرأيت ياداشر كم أن كلبي شجاع ؟! .. انظر

اليه كيف أنه ظل لوحده عند باب السرداب المخيف ..

غير أن الكلب قطاش ، في الواقع ، هو الذي لم ينتبه الى أن الجميع ذهبوا ونسوه واقفا هنا لوحده .. لذلك فانه ما ان لاحظ ذلك ، ورأى أن أهل القرية صاروا بعيدين عنه ، حتى قفز بسرعة وراح يعدو خلفهم مثل السهم ، يريد اللحاق بهم •